عبد الوهاب مطاوع

افتح قلبك

دار الشروق

بـلا أحـــزان

ــ لم أعـد احتمـل هـذه الحيـاة ! ضقـت بـك وبكـل شـىء.. أنـت لم تفهميني.يوما ..

ـ وأنا ضقت بكل شىء .. أنت أيضا لم تفهمني يوما..

ـ حسنا هـذه إذن هي النهاية .. لقد حـاولت تأجيلها طويـلا .. من أجل «بهاء» ابننا لكنـي كنت واهما .. البناء الـذي بلا أساس لابـد أن ينهار ذات يوم..

ـ وأنا احتملت الكثير ومن أجل « بهاء » أيضا .. لكنك لا ترى إلا نفسك ..

ـ لو كنت لا أرى إلا نفسى لما احتملت الحياة معك عشر سنوات.. لقد بدأ عدم تفاهمنا بعد الزواج مباشرة ..

ـ لماذا احتملت الحياة معي إذن .. لماذا لم تنفصل بعد الزواج مباشرة ؟

ـ اخطأت .. راعيت الآخريـن دائما على حساب سعادتي .. أشفقت عليك من الفشل والعـودة بالخيبة إلى أسرتك بعـد شهور من الزواج .. تصـورتك حزينـة .. وتصورت أسرتـك وهى تحس بالـرثاء لك وبـالخجل مـن فشلك فمنيت نفسي بـالصبر .. وتمسكت بالأمـل في أن تخلق العشرة التفاهـم بيننا ذات يوم ..

ـ وأنا أيضا رأيت بوادر الفشل منذ زمن طويل.. ومنيت نفسي بالأمل..

ـ كـان خطأ كبيرا منا نحن الاثنين .. ان الكتـاب يُقرأ من عنوانـه . لكني اخطأت قراءة العنوان .. ثم جاء « بهاء » فتركزت حياتي فيه واحتملت الكثير

حتى لا يتمزق بيننا ..

ـ وأنا أيضاً احتملت الكثير حتى لا يتمزق بيننا ..

ـ لكنك إذا جاءك شيطان الحمق تنسين كل شيء حتى بهاء وتختلقين أسباب النكد وتنسين أثر ذلك على « بهاء » نفسه .. لقد كبر الولد وأصبح يفهم ما يدور بيننا .. ألا تلاحظين تعاسته في فترات الخصام الطويلة بيننا..؟

ـ مادمت تلاحظها لماذا لا تعفيه منها ؟

ـ ومادمت تلاحظينها لماذا تتهللين لخلق أسباب النكد ولا تعفينا منها رحمة به قبلي ؟.

ـ هكذا أنت دائما !

ـ وهكذا أنت دائما .. لا فائدة .. لقد اقتنعت أخيرا بأنه ليس عدلا أن يحتمل الإنسان العذاب حتى نهاية العمر لحساب إنسان آخر.. سأخرج ولن أعود وسأرسل من يأخذ ملابسي وأشيائي..

ـ أنت حر!

وحمل حقيبة أوراقه وخرج .. صفق الباب وراءه بعنف ووقف أمام باب المصعد يلتقط أنفاسه .. تلفت بنظره حوله ليرى هل سمع أحد الجيران ما دار بينه وبين زوجته ، وأحس ببعض الاطمئنان حين رأى أبواب الشقق المجاورة له مغلقة .. شكرا للتليفزيون الذي قدم للجيران تسلية أطرف من استراق السمع لخلافات الآخرين ..

ركب المصعد إلى الدور الأرضي .. ونهض البواب لتحيته فتساءل بينه وبين نفسه هل ترامت إليه أخبار الخلافات المستمرة بينه وبين زوجته ؟ لكن ماذا يهم الآن ؟ لا شيء يهم .. لقد آن الأوان لأن اتخلص من هذه القيود الاجتماعية التي كبلت حياتي .. كم كنت غبيا حين كنت أقول لنفسي دائما لا داعي لأن تشكو تعاستك لكيلا تعرف أسرتك مشاكلك لا داعي لأن تهجر

البيت لكيلا تذاع أخبار مشاكلك بين أصدقائك وأهلك .. اللعنة على كل شيء.. فليعرفوا جميعا وليرث من يرثى وليشمت من يشمت.. على أى شيء آسى وقد ضاعت زهرة العمر في النكد والمعاناة والوحدة الداخلية .. لست وحدي من خانه التوفيق فى حياته الخاصة .. لكنني وحدي الذي أشفق على نفسه من الفشل وكلام الناس .. فماذا اجداني ذلك؟

فتح باب سيارته .. ووضع حقيبة أوراقه على الكرسي المجاور وركب أمام عجلة القيادة وتحرك بالسيارة وواصل حواره الداخلي:

لقد قال لي الطبيب منذ أيام .. إرتفاع الضغط ليس له أسباب عضوية عندك .. إنه ضغط عصبي يتأثر بحالتك النفسية .. فلا تكتم انفعالاتك حتى لا يرتفع ضغطك ويتعذر عليك النوم.. ويلازمك الصداع .. حسنا.. سأفعل.. سأتكلم .. سأثور .. سأصيح .. سأقول .. لماذا تطاردنا القيود في كل مكان ؟ لماذا أذهب الآن إلى عملي وأنا ضيِّق الصدر بكل شيء كالسجين .. لقد أديت عملي في الصباح وأرضيت ضميرى فلماذا أعود إلى مكتبي بعد الظهر بدلا من أن أذهب إلى الأصدقاء .. أو اختلي بنفسى .. وأطلق لمشاعرى وانفعالاتى بل ولدموعى أيضا العنان ..

لماذا أفعل دائما ما ينتظره منى الآخرون لا ما أريده أنا .. لماذا أذهب الآن إلى مكتبى والتقى بأشخاص وأسمع لهم بدلا من أن أتكلم أنا؟.. اللعنة على كل الأشياء .. لن أذهب إلى المكتب .. سأذهب إلى أدهم صديقى أنه أعزب سعيد لا يعرف الهموم بل سأذهب إلى كمال.. أنه زوج سعيد أيضا وبيته واحة من الحب والحنان .. لن أذهب لهذا أو لذاك سأذهب إلى صديق طفولتى حسين .. أنه يفهمنى بغير كلام .. بل سأذهب إلى أصدقاء زمان فى مقهى « سان سوسى».. لقد كانت حياتنا أيامها ملائمة جدا لاسم المقهى بالفرنسية .. بلا أحزان .. ترى ماذا استطيع أن اسمى حياتى الآن؟ سأذهب إلى «سان سوسى » .. مازال الوقت مبكرا على موعد حضورهم إليه .. لا يهم

سأذهب قبلهم وانتظرهم وانغمس معهم فى مباريات الشطرنج العابثة واللاهية وأتشاغل بها عن أحزان الحياة . سأطلب من عثمان مفتاح شقة العزوبية التى مازال يحتفظ بها لأقيم فيها إلى أن أدبر لنفسى مسكنا .. لن تطول اقامتى فى شقة عثمان .. فعندى شقة تحت التشطيب سوف اتسلمها بعد شهور وأدفع أقساطها بانتظام منذ جاء « بهاء » إلى الدنيا .. قلت لنفسى عندما ولد بهاء أن مثلى لن يجمع ثروة لابنه .. فحسبى أن أحسن تعليمه وأن اشترى له شقة يبدأ بها حياته .. فبعت قطعة الأرض الصغيرة التى ورثتها عن أبى بسعر التراب لشقيقى ودفعت الثمن كمقدم لهذه الشقة.. وهنأت نفسى على حسن تدبيرى لمستقبل بهاء.. الحق أنى قبلت الثمن البخس من شقيقى لكى أتجنب المشاكل معه وأريحه وأستريح واحتفظ بأخوّته وهو شقيقى الوحيد .. لقد كان يضع يده على هذه الأرض منذ وفاة أبينا ولا اجرؤ على محاسبته على ايرادها حرصا عليه .. يعطينى بضعة جنيهات فأتقبلها شاكرا.. يقول لى لا ايراد لك هذه السنة بسبب تلف المحصول فأقول له : الله معك .. ولا أغضب حين أراه يشترى لنفسه فى نفس السنة قطعة أرض جديدة .. سوسن زوجتى كانت تضيق بمسالمتى له وتنازلى عن حقوقى معه وتحرضنى عليه لكنى لم أستجب لها أبدا.. وكثيرا ما قلت لها أن النقود تذهب وتجىء .. أما الأخ فانه إذا ذهب لا يعود أبداً .. فلا تقتنع وتسألنى فى ضيق وابنك؟ لماذا تراعى دائما الاعتبارات الاجتماعية والعائلية وتتجنب المشاكل وتخشى أن يعرف الآخرون ما يفعله معك شقيقك ؟ فأسكت ولا أجيب وأتساءل بينى وبين نفسى: الا ترانى أفعل نفس الشىء معها؟ فى لحظة الغضب يُنسى كل شىء.. أكتشف متأخرا عبث الأشياء .. وأعرف أننى ضحيت براحتى من أجل لا شىء ..

لكن كل ذلك سوف يتوقف الآن .. سأتعامل مع الحياة بمنطق جديد سأعيش فى شقة عثمان حتى أتسلم شقتى .. سأقوم بتأثيثها كما أريد وكما

تمنيت ستكون أغلى قطعة أثاث فيها هى الاستريو الذى يذيع علىّ آليا كل صباح أنغام الموسيقى الهادئة .. سأنفذ الفكرة التى شهدتها فى شقة صديق مثقف .. سأوصل اكرات أبواب غرف الشقة وبابها الخارجى بأسلاك الاستريو فإذا ما فتحت باب الشقة انبعثت أنغام الموسيقى الحالمة منها بمجرد فتحه..وكذلك فى كل الحجرات..

أمام بهاء عشر سنوات إلى أن يحتاج إلى هذه الشقة .. سأستمتع خلالها بحياتى وربما دبرت لنفسى شقة أخرى .. أمه موظفة مثلى ولا تنفق مليما فى بيتها ولا تدخر لابنها شيئا .. لماذا لا تفكر فى مستقبله كما أفكر فيه أنا منذ مولده .. عليها الآن أن تفكر فى ذلك وأن تدخر له بعض النقود .. أما أنا فسوف أتنازل لها وله عن شقتى الجميلة .. وسأتنازل عن كل شىء وسأفكر فى مستقبلى خلال وحدتى بروية .. ربما تزوجت .. وربما استمررت وحيدا .. لكنى إن تزوجت فلن أتزوج إلا ممن أحبها وتحبنى ولو كانت جارية حبشية.. وسأعيش حياتى كما تخيلتها دائما ساعات محددة للعمل .. ساعات للقراءة والموسيقى.. سأزور بيوت أصدقائى وأقاربى التى لم أزرها منذ سنين.. سأمضى يوم الجمعة فى النادى الذى لم أدخله منذ دهر.. سألتقى بأصدقاء الزمن القديم الذين حالت مشاغل الحياة بينى وبينهم .. سألبى كل دعوة عائلية وسأحضر كل فرح أدعى إليه.. وكل حفل لعيد الميلاد .. آه نسيت كل هذه الأشياء الجميلة فى زحام العمل واكتئاب الحياة الخاصة .. لان المكتئب ينفر من المجتمعات ويتقوقع على نفسه وأحزانه ..

أفاق من « عراكه » الداخلى مع نفسه .. فوجد سيارته تتوقف ببطء أمام مبنى العمل وليس أمام مقهى « سان سوسى » كما أراد .. تعجب كيف قاد سيارته إلى هنا بحكم العادة وهو يريد أن يذهب إلى هناك .. فهمَّ بأن يستدير بالسيارة ليقودها إلى المقهى ففوجئ بحارس المبنى يفتح له بابها ..

فأراد أن يشكره ويعتذر له أنه لن يدخل المبنى ففوجىء بمنادى السيارات المستديم أمام مبنى العمل .. قد فتح الباب الآخر وحمل حقيبة أوراقه وسبقه بها إلى المصعد وسلمها لعامله.. لم يعد التراجع ممكنا ولابد مما ليس منه بد فنزل من السيارة وترك مفاتيحها فيها ليركنها المنادى واغتصب ابتسامة آلية وهو يحيي حارس المبنى وتوجه إلى المصعد فرد تحية عامل المصعد واسترد منه حقيبته ..ووقف فى المصعد المفتوح يفكر فيما يصنع .. فإذا بعامل المصعد يقول له مترددا :

ضيوف كثيرون ينتظرونك فى مكتبك .. صعدوا معى وهم يسألوننى عنك.. ويقولون أنهم جاءوا يستشيرونك فى مشاكلهم الخاصة .. أنهم يستريحون لكلامك يا أستاذ ويتصبرون به .. جزاك الله خيرا .. لكنه لم يسمع من حديثه شيئا .. كان مشغولا بمراقبة باب المصعد الآلى وهو يزحف رويدا رويدا فى الاتجاه الآخر ليتحول المصعدإلى صندوق محكم لا منفذ له.. ولا مهرب منه !

فتساءل بينه وبين نفسه فى اكتئاب .. أين المفر ؟ .

المتعـــة .. والحـــزن !

وقف الطفل الصغير أمام فاترينة محل ملابس الرجال يتأمل باهتمام شديد ما يراه خلف الزجاج . لم يكن يشاهد البدل الجديدة الأنيقة المعروضة فيها ولم يكن يحلم بأنْ يكبر ويستطيع أن يشترى واحدة من هذه البدل .. بل ولم يكن ينظر أساسا إلى هذه البدل الأنيقة إنما كان يرقب بشغف وحنين « الموديلات » الوردية اللون المصنوعة بدقة وجمال من البلاستيك على هيئة الرجال والتى ترتدى تلك البدل ! .. يتأمل ملامح الوجوه الوسيمة ولون شعر الرأس ولون العيون وما توحى به من انطباعات عن شخصية كل موديل. فهذا « الرجل » وسيم ، لكن ملامحه توحى بالقسوة ، وهذا « الرجل» أقل وسامة لكن ملامح وجهه مريحة وهذا الرجل وسيم وشديد الشبه بوالد زميله فى الفصل ، وكل هؤلاء الرجال فيهم أناقة ووسامة ووجوههم باسمة.. لكنه لا يجد بينهم ضالته .

لم تكن المرة الأولى التى يمارس فيها هواية تأمل وجوه الموديلات فى نوافذ المحال التجارية الكبرى .. فهو يتأملها دائما كلما خرج مع أمه لتشترى بعض حاجاتها من الأسواق ، فتجذبه من يده بحزم كلما أطال الوقوف أمام أحدها ، لكنها المرة الأولى التى يمارسها فيها منفردا وبحرية بعيدا عن رقابة أمه وجذبها المستمر له من أمام المحال .. فلقد تأخرت اليوم فى الحضور لاصطحابه من مدرسة الحضانة ووجد حارس الباب منشغلا بالحديث مع بعض آباء الأطفال الذين يحييهم باحترام كلما جاءوا

لاصطحـاب أطفـالهم فتسلـل من بـاب المدرسـة وحيدا وراح يتمشـى فى الشوارع وحيدا ينتقل من محل إلى آخر .. ومن رصيف إلى رصيف باحثا عن فاترينة المحل القـريب التى عثر فيهـا منذ أيام خـلال مصاحبته لأمـه عن «الرجل» الـذى يريده ويتمناه لنفسه ! أنه طـويل وسيم باسم يبـدو حنونا ومحترما فى نفـس الوقـت .. وسوف ينهض حـارس المدرسة تحيـة له حين يحضر لاصطحـابـه منها ظهـر كـل يـوم كما يفعل مـع الآبـاء المحترمين ! وبمصادفة نادرة وجد نفسه أمامه ينظر إليه باسما ومادا ذراعيه يستعرض البدلة الأنيقـة التى يرتديها كانما يسـاله هل تعجبك ؟ فتسمـر أمامه وراح يرقبه فى صمت وخياله ينشط .. أنه يـريده لنفسه أبا يحبه ويخافه ويفتخر به أمام زملائه بالمدرسة .. وأطفال جيرانه فكلهم لهم أباء وهو وحده الذى لا أب له.. مات فى الحرب كما قالت له أمـه ولم تبق منه سوى صورة صغيرة معلقة فى حجرة الصـالون يقف فيها إلى جـوار أمه بملابس الـزفاف .. لكن الأب الـذى فى الصورة لا يتكلـم ولا يتحـرك ولا يـداعبه ولا يخرج معـه فى نـزهة.. ولابـد مـن أب جديـد .. فبـدأ يبحث عنـه فى وجـوه جيرانه لكنهـم مشغولـون جمعيا لهم زوجـات وأبناء .. فبـدأ يبحث عنـه فى نوافـذ المحال التجاريـة! إن هذه المحـال تجيد اختيار الـرجال الـذين يقفـون فى شرفاتها وسوف يجد ضـالته فيها .. وبدأت رحلتـه للبحث عنه كلما اصطحبتـه أمه لشراء شىء مـن الأسواق .. وضـايقه كثيرا أن أمه لا تفضـل الوقـوف أمام محال ملابـس الرجـال وتصحبه غالبـا إلى محال ملابـس الأطفال ومحال الملابس النسـائية .. وهى جميلة وصغيرة وحـزينة وترتـدى السواد دائما وتلاعبـه أحيانا وتبكـى أمامه فى أحيـان أخرى وتحتضنه فى الليـل وتنام . وكلما سألها لماذا لا يكون له أب آخر بـدلا من الأب الذى فى الصورة تبتسم ابتسامة حـزينة وتطالبه بـالحديث فى موضوع آخـر .وهاقد وجد فـرصته أخيرا ليقنعها « بشراء » أب من هذا المحل.. فدخـل مرتبكا ليسأل البائع عن

ثمنه !وتعجب البائع من أن يفكر طفل صغير فى شراء بدلة كبيرة للرجال أو أن يسأل عن ثمنها فداعبه وطالبه بأن يعود مع أبيه لشرائها .. وذهل الرجل قليلا حين قال لـه الطفل أنه لا أب له وأنه لا يـريد شراء البدلة وحـدها لكن شراء « الرجل » بملابسه ليكون له أبا ويريد فقط أن يعرف الثمن ليقنع أمه بذلك ! وربت البائع على خده وأفهمه برقة أن المعروض فى النافذة ليس رجلا وإنما نموذج لرجل وأنه ليس للبيع .. لهذا فهو لا يصلح لان يكون أبا لاحد.. وعليـه أن يبحـث عـن ضـالتـه بين الرجـال الـذيـن يتكلمـون ويمشـون ويضحكون ، فخـرج الطفل حزينـا والبائع يتابعـه بعطف وتأمـل ! وسار الطفل فى الشارع يتأمل الرجال الـذين يعبرون الطريق ويرفع رأسه إلى أعلى يتأمـل الوجوه ويقف أمـام المطاعم يـرقب من وراء الـزجاج الرجال الـذين يتنـاولون الطعـام .. ويتجاهـل الرجـال الذيـن يسيرون بصحبة سيدات وأطفال ويركـز أنظاره على الرجال الذن يسيرون أو يجلسـون وحـدهم.. ثم اصطدم بسـاق رجل .. فـانحنى عليـه الرجـل معتذرا ومبتسما .. فتعلقت نظرات الطفـل به كأنه نجـدة هبطت عليه مـن السماء أنه قريب الشبـه من الرجل الآخر الواقف فى نافذة المحل .. ووسيم ومحترم مثله.. وأكثر من ذلك يسير وحيدا فى الشارع .. وقـد مضى الرجل فى طـريقه فوجد الطفـل نفسه بتلقائية يسير خلفـه . كان الرجل يحمـل فى يده حقيبة أوراق صغيرة .. ولا يبدو فى عجلة من أمـره فراح يمشى على مهل .. ويتوقف أحيـانا أمام بعض المحال التجاريـة ومن خلفه يسير الطفل كلما سار ويتوقـف كلما توقف ولا يرفـع عينيه عنه ! ثـم دخل الرجـل مقهى صغيرا فتردد الطفل فى الـدخول وراءه فوقف ينتظره أمـام بابه .. ولم يختف الرجل طويـلا عن انظاره فلقد اختار مـائدة مطلة على الشـارع وجلس إليهـا وفتح حقيبتـه وأخرج منهـا صحيفة وراح يحتسى القهوة ويقرأ .

فقـال الطفل لنفسـه أن هذا هـو بالضبـط الأب الذى يـريده .. أب يقـرأ

الصحيفة ويشرب القهوة ويبدو محترما من الجميع .. ولم يشعر بالوقت الذى مضى وهو واقف أمام المقهى .. لكنه تنبه فجأة إلى الرجل وهو ينظر إليه بدهشة .. ويبدو كأنما تذكرة ! أنه يشير إليه أن يدخل المقهى .. فتردد قليلا ثم دخل .. واتجه إليه واستقبله الرجل بعطف وسأله : هل تريد شيئا أيها الصغير ؟ فلم يجد جوابا . وشجعه الرجل قائلا : هل تريد أن تأكل أو تشرب شيئاً ؟ فهز رأسه نافيا فعاد يسأله هل تريد نقودا؟ فهز رأسه مرة أخرى بشدة فتنبه الرجل إلى شىء غاب عنه فقال :يا إلهى أنت صغير جدا وربما لم تبلغ السادسة .. ترى هل فشلت فى العودة إلى بيتك وتريدنى أن اصطحبك إليه ؟ فأشار الطفل إليه برأسه مجيبا . فسأله : أين تسكن.. فلم يستطع أن يتذكر اسم الحى أو الشارع .. فدفع الرجل ثمن القهوة ثم نهض وأمسك بيده واصطحبه خارجا وهو يقول له : دعنا نبدأ من البداية . أرنى كيف بدأت رحلتك حتى وصلت إلى هنا وسار الطفل معه .. وفى الطريق سأله فى خجل : هل عندك سيدة وطفل ! فضحك الرجل وقال له :تقصد هل أنا متزوج؟ لا لست متزوجا أيها الصديق الصغير. فتردد الصبى قليلا ثم قال له ببراءة : وهل تريد سيدة وطفلا ؟ فاستولت الدهشة على الرجل تماما وراح يسأله عن سبب تفكيره فى ذلك والطفل يجيب فى سذاجة حتى عرف القصة كاملة ولمعت عيناه بالتأثر والتفكير .. ثم تمالك نفسه وقال له إن علينا أن نعرف أولا أين تقيم ونعيدك إلى أمك .. أنها تبحث عنك الآن فى كل مكان وشديده القلق عليك .. ثم لنبحث الأمر بعد ذلك معا.

واعتبر الطفل ذلك موافقة فانفرجت اساريره .. وتملكته فرحة طاغية وأمسك بيد أبيه الجديد باعتزاز وتمنى لو صادف فى الطريق بعض زملائه فى المدرسة الذين يتحدثون دائما عن آبائهم ليقدمه إليهم. ومضى الاثنان ينتقلان من شارع إلى شارع والطفل يضحك ويسأل ويتكلم والأب يجيب على أسئلة « ابنه » باهتمام .. ويتوقف من حين لاخر ليسأل شرطى المرور

أو احد المارة عن موقع المدرسة التى قـرأ اسمها منسوجا على قميص الطفل وأخيرا اقترب الاثنـان من مبنـى المدرسـة وعبرا البـوابـة الرئيسيـة فما أن دخلاهـا حتى صرخت الأم من الفـرح حين رأت طفلها وجرت إليه بـاكية .. وجرى إليها الطفل سعيدا ورفعته عـن الأرض وغمرته بقبلاتها ودموعها .. ثم تنبهت للرجل الـذى كان يرقب المشهد متأثرا ، فمدت إليـه يدها وشكرته بحرارة .. وأجابها الرجل بكلمات قصيرة ، ثم استأذنها واستدار لينصرف.. فصاح الطفل يطالبه بالبقاء وأحس الرجل بالحرج قليلا ثم وعده بأن يزوره فى البيت فى وقت آخر واشار إليه بيده وواصل طريقه.. فطالب الطفل أمه الا تدعه يرحل لأنه يريده أن يذهب معهما إلى البيت وأن «يبقى» معهما دائما .. وقد اتفق معـه على ذلك ووافق الرجـل .. لقد عثر عله بعـد أن تعب كثيرا من البحث عنه فى الشوارع لأنه الشخص الذى يريده أبا له وادركت الأم الموقف وسألتـه عما قاله لـه واستمعت إليه ساهمة واشفـاقها على طفلها الـوحيد يتزايد كلما ازداد حماسا فى الحديث عن الرجل .. ثم قالت له وهى تجذبه إلى طريق العودة للبيت : سوف يعود قريبا وسوف يقيم معهما.. وسوف يتغير نظام حياتهما وتصحبه هى إلى المدرسة فى الصبـاح ويعيده هو من المدرسة إلى البيـت عند الظهـر.. وسوف يلتقـون معـا كل يـوم على مائدة الغـداء .. ويشاهـدون التليفزيون معـا فى المساء ويخرجـون يوم الاجازة إلى حـديقة الحيوان .. وإلى السينما كما يريد وسوف يكون له أب وسيم يفتخر به أمام أصدقائه فى الزيارات العائلية ويقبله قبلة المساء قبل أن ينام كما يفعل الآباء مع أبنـائهم الصغار واختتمـت كلامها لـه بابتسـامة دامعة وهـى تقول : سيحدث كل ذلك يـا صغيرى صدقنى ألم يقل أمامك أنـه سيزورنا فى وقت آخر!

ثم مسحت دمعتها بظهر يدها .. ومضت فى الطريق إلى بيتها ممسكة بيد طفلها الصغير الذى يتقافـز سعيدا ومبتهجا وهو يعد فى خيالـه ما سيقوله

لزملائه فى المدرسة عن أبيه الجديد .

وظهرت كلمة (النهاية) فوق ظهر الأم الحزينة والطفل السعيد!

أنها قصة غريبة قدمتها السينما الروسية منذ أكثر من ٢٥ سنة فكانت من الأفلام القليلة التى يندفع المشاهدون عقب مشاهدتها للتصفيق بحرارة وانفعال كأنهم فى مسرح يقف فوق خشبته أبطاله.. ويردون لهم تحيتهم بالانحناء أمامهم .

وقد ذكرتنى بها منذ أيام زميلة مثقفة .. فاستعدت ما بقى فى ذاكرتى من تفاصيلها ووجدت لها نفس الأثر الذى خلقته فى نفسى قبل كل تلك السنوات .. أنه نفس الأثر الذى أبدع الشاعر الروسى بالمين حين اختصره فى كلمات قليلة قائلا عن قصة من نفس النوع الإنسانى للأديب العظيم تشيكوف اسمها (محنة) :

« انها صورة صادقة من الحياة تترك فى نفس قارئها أثرا غريبا هو مزيج من المتعة والحزن .. تماما كما تختلط الفكاهة بالأسى أحيانا فى حياة الناس!» .

وما أكثر ما تختلط المتعة والحزن فى حياة البشر فلا المتعة تطول ولا الحزن يخلد .. لأنها طبيعة الحياة أن تكون كأسا متمازجة من الاثنين غالبا.. أو دائما أو فى كل الأحوال !.

فـــات الأوان !

دخل الكازينو المطل على النهر مكتئبا ، تلقى دعوتها للقاء فى نفس المكان الذى شهد ذكرياتهما فتوجس من الدعوة بسبب صوتها المتجهم ..

فى سابـق الأيام لم يكونا يتـواعدان على اللقاء .. وإنما يخرجان معـا من مبنى الجـامعة فيعبران الجـسر المؤدى إلى الشاطئ الآخـر .. ثم يتجهان بآلية إلى اليمين ليدخلا الكـازينو الصـغير .. من كثرة التردد عرفهما العـاملون به وألفوا رؤيتهما معا .حتى فى أيام الشتاء البـاردة يجلسان ساعة أو ساعتين كل يوم ثـم ينهضان فيوصلها إلى محطـة الأوتوبيس ويعود على قـدميه إلى مسكنه القريب ..

٣ سنوات مضت منذ التقيـا فى عامهما الجامعى الأول . ولم يفتر الحب رغم المناوشات والتعجل !

من حين إلى آخـر تفقد صبرهـا فتطالبـه بما لا تسمح بـه ظروفـه الآن وتتهمه بخيانة العهد ! تجيئه كل عدة أســابيع بخبر خاطب جديد ينزل عليه كالصاعقة ويحيل ليـاليه إلى عذاب .. ثم تطالبه بالتحرك ! يعيـد ما قاله لها منذ البداية من أنه يتيم ولا مـورد له سوى المعاش الضئيل ولا يستطيع أن يتقـدم إليها قبـل أن يتخـرج ويعمل .. فتقـوم بوخـزه بـالكلمات القاسيـة وتتجهم السماء الصـافية ! تقـاطعه أياما لا يعرف للحياة خـلالها معنى ثم تعود إليه بخبر زوال الغُمة وانصراف الخاطب يائسا وتضيف ذلك إلى سجل تضحيـاتها وتتفتح الأزهـار مـن جديـد .. ينعم بحبهـا أســابيع ثـم تهبُ

العاصفة مرة أخرى بنفس المقدمات والتفاصيل .. يسألها لماذا نبدد أجمل أيامنا فى المعاناة وغيرنا ينعم بالحب والثقة فى المستقبل بلا عذاب ؟ فلا يجد جوابا شافيا ..

انقبض قلبه حين رآها جالسة فى نفس موقعهما القديم بالرغم من اعتياده زوابع الشتاء .. شىء ما فى وجهها أكد له قلقه الدفين .. كأنما تريد أن تقول له : لن أضعف هذه المرة .. ولن أقدم المزيد من التضحيات.. صدُق تشاؤمه حين تحدثت إليه بلهجة باردة كمن اتخذ قرارا نهائيا ولم يبق إلا أن يعلنه ، أنهت إليه بصوت غريب على أذنيه قرارها بالانفصال اقتناعا منها بأنه ليس جادا فى الارتباط بها ولو كان لما اكتفى بالعجز ومطالبتها بالصبر والانتظار .. أحس بغصة الألم تتحشرج فى صدره ولم يستطع الكلام .. استجمع قوته ليدافع عن حبه حتى الرمق الأخير .. فلم يسعفه صوته .. أخيرا نطق بصوت مبحوح : حتى لو كنت مخطئا مع أنى لم اخطئ فالوقت لم يضع بعد لتصحيح الخطأ .. نحن شابان صغيران .. والحياة أمامنا طويلة وكل شىء قابل للاصلاح فقط امنحينى فرصة أخيرة للتصرف ..

سكتت كأنما لم تسمع شيئا وواصل هو دفاعه المستميت :

أنا فى الحادية والعشرين من عمرى .. وأنت فى العشرين .. وسوف نتخرج بعد ثلاثة أشهر وسنعمل وأنت أول من نبض قلبى بحبها .. وأنا فارسك الأول .. وحبنا مضرب الأمثال .. لقد كنت أفضل الا أتقدم إليك الا بعد التخرج والعمل .. لكنى مستعد الآن لاقناع والدتى رغم صعوبة ذلك بزيارتكم إنقاذا لحبنا .. ولست أطلب منك سوى فرصة أخيرة .. فرصة أخيرة فلماذا تضنين بها ؟

فاستمعت إليه صامتة ثم قالت بغموض : فات الأوان !

* * *

تمضى أيام المصدوم فى حبه وأمله ثقيلة بطيئة وفى الذاكرة تحفر بعضها ذكراها الثابتة بمخالب الألم .. فى المقدمة يوم الكازينو الصخرى المشاعر .. وعلى رأسها الليلة التى تخيلها فيها بفستان وردى فى حفل خطبتها لفارس جديد .. تجنبا اللقاء حتى فى حفل الوداع يوم التخرج وتكفل زملاء الدفعة والعمل فى نفس المجال بنقل أخبار الطرفين كل منهما للآخر بغير جهد كبير.. بعد أسابيع من الانفصال عرف بأمر خطبتها .. ثم بعد شهور قليلة سمع أنباء عن فسخ الخطبة .. استيقظت العصافير النائمة فى صدره من جديد لكن شيئا لم يبشر بقرب تحقيق الآمال .. التقيا فى اجتماعات النقابة التى تجمعهما .. فرأى وجها جديدا اكتسى بطابع جديد من خبرة الحياة.. تساءل فى حسرة أين البراءة ورومانسية الأيام الخالية ؟ اقتربت منه كأنما لم تعترض حياتهما محنة الانفصال .. حدثته عن عملها وتجنبت الحديث عن الحب الذى كان فآثر ألا يقترب من النبع الجاف.. تواصل اللقاء فى حديقة النقابة الخلفية حتى أصبح لقاء يوميا وتشعب الحديث .. لكن صدى أنغامه تغيَّر كأنهما زميلان لا تجمع بينهما سوى المهنة الواحدة والطموح والرغبة فى شغل الفراغ ! قال لنفسه لعلها تنتظر أن أكون البادئ بالاعتراف من جديد إرضاءً لكبريائها.. لكنها التاركة فلماذا لا تعطى اشارة العودة والأمان؟انتظر صابرا وقد حسم أمره وقرر أن يفاتحها من جديد إن تمسكت بالكبرياء إلى النهاية سأقول لها انى الآن قادر على تحقيق الاحلام أن الفرصة التى يمنحها الدهر لنا فنضيعها لا يعيدها مرة أخرى .. لكنها عادت ولن ندعها تفلت من أيدينا مرة أخرى .. "

لكن أين هى ليلقى سلاح كبريائه تحت قدميها ؟ ولماذا احتجبت منذ أيام عن جلسة الزملاء فى الحديقة ؟ أهى حيلة جديدة لأستشعر غيابك وألقى بسلاحى تحت قدميك .. لست فى حاجة إلى مزيد من الحيل فأنا المهزوم قبل النزال..

ونهض يتصل بها تليفونيا فى عملها ويدعوها للقاء فى الحديقة الخلفية ..

حاولت الاعتذار بمشاغل العمل فألح عليها فى الحضور ، بدت مترددة لكنها وافقت فى النهاية ثم جاءت وبلا مقدمات ركز عينيه فى وجهها .. وأفرغ بين يديها مكنون صدره ، فسمعته صامتة.. حائرة ثم اعتصمت بالصمت طويلا وأخيرا نطقت :

تأخرت كعادتك .. فات الأوان !

* * *

حين تفقد الأشياء معناها يستوى كل شىء مع أى شىء وبنعمة النسيان تتحول الجروح الأليمة تدريجيا إلى جروح أليفة يمكن احتمال آلامها .. ثم تتحول مع الأيام إلى ندوب لا تؤلم ، لكن أثرها لا يزول !

وعن بعد راقب بقلب مصدوم أنباءها « السعيدة » فعرف بخطبتها لرئيسها فى العمل .. ثم بيوم قرانها . بدعوى الواقعية يلقى الحب مصرعه ويصبح كل شىء مبَررا ، أحزنه منها أنها قبلت أن يقام حفل زفافها فى نفس الحديقة الخلفية التى شهدت مصرع الحب للمرة الثانية وكان بمقدورها أن تقيمه فى أى مكان آخر ..

قاطع مبنى النقابة ليلتها وأمضى سهرته فى مقهى غير بعيد يتشاغل عن أحزانه بلعب النرد بذهن شارد .. ودع الأصدقاء عقب منتصف الليل وعاد سائرا على قدميه إلى مبنى النقابة كأنما ليطمئن إلى أن كل شىء قد تم وانتهى .. فإذا به يجد نفسه أمامها بثوب الزفاف الأبيض ووردة حمراء قانية فى شعرها فأسرع يخفض عينيه وتحركت السيارة بالعروسين فى سلام ..

تفعل الأيام الأعاجيب .. وفى أحلام النجاح فى العمل قد تُدفن بعض الأحزان .. يتغير كل شىء فى عالم لا شىء ثابت فيه إلا قانون التغير وتضيف خبرة السنين مزيدا من التجاعيد فوق الوجوه .. يحقق كل إنسان

بعض ما يصبو إليه.. ويبقى دائما ما يحلم به ومن حين إلى آخر قد تجود الحياة ببعض قطرات السعادة ، يرفع سماعة التليفون ذات يوم فيجد صوتها الدافئ يتحدث إليه بألفة الزمن القديم .. يطول الحديث وينتهى بوعد باللقاء فى كازينو النهر الذى شهد بداية القصة وأجمل سنوات الأحلام .. ذهب إلى اللقاء مسترجعا يوم اللقاء الأخير فى نفس المكان .. وعجب للذكرى الخبيثة التى مازالت تطل عليه كلما تذكر مشهد اللقاء بالكازينو.. أو مر به فى طريقه ، يوم اللقاء الأخير الذى وأد الحب فى مهده غادرا مائدتهما فى طريقهما للخروج فمالا كعادتهما غالبا إلى التواليت فدخلت هى من باب السيدات ودخل هو من باب الرجال .. كان التواليت غرفة واحدة مقسمة بحاجز خشبى رقيق يفصل بين المكانين وفى غمرة انفعاله الحزين سمع من الجانب الآخر « نشيش » افراغها لمثانتها بوضوح فرنَّ فى أذنيه رنينا غريبا مازج بين حزنه وتأملاته الساخرة.. فقال لنفسه فى حواره الباطنى : أفرغت قلبها ومثانتها واستراحت ، أما أنا فاحتباس الحب يقتلنى بلا رحمة .. ولاسابيع طويلة ظل صوت نشيش يقفز إلى خاطره كلما اشتد به الألم !..

استرجع نفسه من ذكرياته واقترب من المائدة القديمة فرآها .. ازدادت نضجا وأنوثة لكن أين براءة الزمن القديم أين ؟ تحدثا طويلا.. استعادا تفاصيل اللقاء الأخير .. تبادلا العتاب والاتهام بالمسئولية عن وأد الحب قبل موعده..

اعترفت لأول مرة بأنها اخطأت حين نفد صبرها ولم تلتفت للحقيقة التى أكدتُها لها من قبل فى هذا المكان من أننا صغيران ولم تضع الفرصة أمامنا لاصلاح الأخطاء .. واعترفت بأنها لمست بالتجربة أنه مهما كانت متاعبنا فإن مشاكل الحب أقل إيلاما من مشاكل الحياة الخالية منه .. واعترفت له بأنها انفصلت بعد تجربة محزنة عن زوجها وانتهت التجربة بطفل حائر وذكريات أليمة .. ثم توقفت قبل أن تقول له : اعترف لك أنى أخطأت فى حقك

وحق الحب منذ البداية وأريد أن أصحح خطئى بعد ٨سنوات .. فماذا تقول؟

استمع إليها صامتا حزينا .. ثم هم بأن يتكلم ففضحته دمعة لم يستطع مقاومتها .. ثم خرج صوته فى النهاية : عقدت قرانى منذ يومين بكل أسف .. فات الأوان!

جفت الكلمات فلم يجدا ما يضيفانه ثم تحركا للانصراف .. وعبرا الشارع القديم .. إلى مكان سيارتها وفتحت بابها ودخلت ومدت يدها تصافحه مودعة فاحتفظ بها وقال لها كأنما يحدّث نفسه : قرأت بالأمس عبارة غريبة لأوسكار وايلد تقول : « كل ما يتمناه المرء يستطيع أن يحققه.. ولكن غالبا بعد فوات الأوان » ! .. فلماذا تتحقق الأمنيات الغالية بعد فوات الأوان ؟ فأدارت محرك السيارة صامته وتحركت بها ببطء وهو يتابعها بنظره إلى أن اختفت شيئاً فشيئا وسط الزحام ..

أوراق زوج سعيد !

ربما لا يذكر شباب الجيل الحالى تلك المذكرات التى نشرها المرحوم الأستاذ محمد زكى عبد القادر فى جريدة « الأخبار » فى بداية الستينيات وكتب لها مقدمة يقول فيها أن له صديقا كان قد « أودعه مذكراته » وطالبه بعدم نشرها إلا بعد رحيله عن الحياة ، وقد أوفى له بالعهد فحفظ هذه المذكرات حتى بلغه نبأ وفاته فأسف له .. وتحلل من وعده وبدأ ينشرها على حلقات طويلة بأسلوبه الأدبى الرصين ويفصل بين كل جزء منها وآخر بهذه العبارة : وقال الرجل الذى أودعنى مذكراته ، ثم ينطلق قلمه برسم لوحات إنسانية تعكس صورا ومشاهد من الحياة أو تمزج بين الواقع والخيال.. وبين الفن والحقيقة ..

وكان تكرار عبارة « الرجل الذى أودعنى مذكراته » كثيرا فى هذه المقالات مثار تندرنا كشباب يعمل بالصحافة ويهوى الأدب ويريد أن يتباهى بذكائه وأن يقول للكاتب ، ليس هناك رجل ولا مذكرات وإنما أنت تتخفى وراء هذا الشكل الأدبى المعروف لكى تكتب بحرية متحررا من الحرج الذى يحسه الكاتب تجاه أسرته ومعارفه إذا ترك العنان لقلمه ليكتب صفحات صريحة من حياة البشر..

ولقد تذكرت هذه القصة حين عثرت منذ أيام فى أوراقى على بعض الكتابات القديمة التى كتبتها حين كنت أحاول كتابة القصة القصيرة فى

أواخر الستينيات ، وكان من عادتي أن أكتب الفكرة أولا فى قصاصة منفصلة ثم اصوغها بعد ذلك فى قصة قصيرة شديدة الايجاز ، وحين عثرت عليها مؤخرا رحت أعيد قراءتها فوجدتنى قد سجلت أفكارا ولم أترجمها إلى قصص وبدأت فى كتابة بعض القصص ثم انصرفت عنها ولم استكملها ، وكتبت أيضا خطرات تشبه الأقوال المأثورة ثم انقطع حبل أفكارى بعدها فلم أواصلها..بل وكتبت كذلك مشاهد حوارية شديدة الايجاز بين زوجين أو بين رجل وامرأة تعكس غالبا موقفا متأزما بينهما أو تنتهى بعبارة لاذعة من الزوج ، ولست أعرف لماذا اخترت أن يكون الجواب اللاذع من الرجل وليس من المرأة .. هل لانى تمثلت نفسى ذلك الزوج مع أنى لم أكن متزوجا حين كتبتها ؟ أم لأنى رجل ومادمت كذلك فلابد بمنطقى وقتها فى كشاب أن أنتصر للرجل على المرأة هذه المعارك الصغيرة على الورق ؟

والحق أنى سعدت بعثورى على هذه الأوراق التى اخترت لها فى ذلك الحين عنوانا له دلالة عكسية هو « من أوراق زوج سعيد » وحاولت أن استرجع جو الفترة التى كتبتها فيها وأتنسم عبيره واستعيد أفكاره ووساوسه .. والمؤكد أنى تمنيت وقتها أن استكملها وأن تكون أول كتاب يصدر لى ويحمل اسمى وأنا فى سن الثامنة والعشرين من عمرى تقريبا ، فلم أحقق حلمى فى وقته بكل أسف وتأخر صدور أول كتاب لى إلى أن تخطيت الأربعين ثم تتابعت كتبى بعد ذلك يحفزنى للدأب على اصدارها احساس مرير بأنى قد أضعت أوقاتا ثمينة من عمرى بالانشغال بالعمل الصحفى وحرفية الصحافة وأهملت ذلك الجانب الخفى من اهتماماتى ، فانطلق أكتب واقرأ بلا انقطاع .. ثم أتوقف لاهثا وأتساءل متعجبا : يا إلهى.. كيف كان الدكتور زكى مبارك يكتب كما قال عن نفسه فى كتابه الشهير «ليلى المريضة فى العراق » ثلاثة مقالات طوال كل يوم ، ويشغل المطابع باصدار ثلاثة كتب فى وقت واحد ؟ وكيف استطاع الآخرون المثابرة على تأليف الكتب واصدارها بدأب واصرار حتى ملأت مؤلفاتهم رفوف

المكتبات؟ ثم أعود إلى نفسى سريعا فأضعها فى حجمها الصحيح وأقول لها : دونك ودون هـؤلاء الشوامخ بحار ومحيطـات ففيم تتعذبين بما لا تـؤهلك قدراتك لمجاراتهم فيه ؟

وأقول لها أيضـا أننى من هؤلاء البشر الذين تأتيهم الآمال غالبا متأخرة عن موعدها الطبيعى بكثير فيفقدون القدرة حتى على السعادة بتحقيقها لأن انتظارهم لها قد طال حتى فقدت قيمتها فى قلوبهم ..

ذلك أن الآمال البطيئة كالعدل البطـىء حين يتحقق فلا يرفع ظلما بقدر ما يثير مـن المرارة فى النفوس التى انتظرتـه طويلا فتتساءل : وأيـن كان حين كنت فى أشد اللهفة والحاجة إليه ؟

أيكون هذا الاحساس المهم هـو السر فى أنى أجد نفسى بغير إرادة أرقب بعطف خفى الخطوات الأولى لأى شاب يبدأ حياته فى أى مجال متمنيا له له حظا أفضل من حظـوظ السابقين ، وأن تطاوعه الآمال فتتحقق لـه فى الوقت المناسب لتجد فى نفسه أرضا صالحة للتهلل لها والاستمتاع بها ؟

أم يكون هو السر فى أن عينى تتجـاوز دائما الصف الأول فى أى احتفال وتستقر على أهل الصفوف الخلفية تحاول أن تستشف مشاعرهم وتتبادل معهم التعاطف فى صمت وعن بعد ؟

أم يكون هـو السر فى أن عينى لا تثبت طـويلا على النجم الســاطع تحت الاضــواء .. وإنما تتسلل لتبحـث عن أهـل الظـل من العـازفين المغمورين وتخص عـازفى الآلات غير المرموقـة كـآلات الايقـاع الهامشية مثـل الـرق والصاجات مثلا بعطف خاص لأن هؤلاء سيظلون دائما على الهامش وبعيدا عن مركز الدائرة ؟

أما المرددون وهم دائما مشروعات نجوم للطرب راودتها الآمال طويلا فى الشهـرة والنجاح ثـم أحبطها الـزمن ، فـلا حـد لتعاطفـى معهم.. ولا حـد لصداقتى على البعد معهم ، ولا عجب فى أن يتناســب تعاطفى معهم تناسبا

عكسيًامع سنهم ومظهرهم ، فإذا كانوا شبابا خفَّ تعاطفى معهم لأن الأمل فى النجاح لم ينقطع نهائيا فى قلوبهم ، وإن كـانوا كهولا محترمين أو شيوخا وخط الشيب رءوسهـم خالط تعاطفى معهـم حزن غامض قد يبـدو غريبا وسط ضحكـات الضاحكين ، لا لشـىء إلا لأنهم نماذج متحركـة للآمـال المتهدمة وللحكم المؤبد بالهامشية والانزواء.

اذكر أنى شاهدت ذات مساء فيلما عـن حياة الفنان الهولندى فان جوخ (١٨٥٣ ـ ١٨٩٠) الذى تباع لوحـاته الآن بالملايين وعاش ومات فقيرا بغير أن يبيع لوحة واحدة وكان يعوله شقيقه الذى يشتغل بعرض اللوحات الفنية للبيـع . ثم مـرض جوخ مـرض الموت بعـد أن أقام شقيقـه معرضـا أخيرا للوحـاته فلم ينجح فى بيـع لوحة واحـدة منها ، وتكاثرت سحـب الاكتئاب ونوبات الجنون على جوخ فمات فى السابعـة والثلاثين من عمره وهو يقول لشقيقه متحسرا : لـو أنك حتـى استرددت ثمن الأدوات التـى اشتريتها لى ! وأسلم أنفـاسه الأخيرة فلم اتمالك مشـاعر .. وتسلل الاكتئـاب إلى نفسى وفسدت ليلتى .. ثم ما من مرة بعدهـا شاهدت لوحة للفنان جوخ فى متحف اللوفر ببـاريس محاطة بالسـائحين من كل الجوانب أو قـرأت خبرا عن بيع لوحـة له بعـدة ملايين مـن الدولارات حتـى قفز هـذا المشهد الـدرامى إلى مخيلتى وتساءلت بينى وبين نفسى، وما قيمة الآمال حين تتحقق بعد رحيل من كـان يسعدهم تحقيقهـا ؟ أو حين تجيئهم كـالعدل البطىء بعـد فوات الأوان؟

ثم اثـوب إلى رشدى سريعا وأردد قـول الحق سبحانه وتعـالى فى سورة القمر : « إنا كـل شىء خلقناه بقدر » فيخـامرنى الاحساس بـالإثم وأطلب العفو عن تطاولى وأعود لمواصلة المشوار بلا كلل ..

لقد سرحت بعيدا عن بداية هذا المقال ولابد أنى قد تأثرت فى ذلك بغير أن

أشعر بطريقة الدكتور زكى مبارك فى الكتابة لأنى استمتع هذه الأيام باعادة قراءة كتبه ..

وقد كان « الدكاترة » زكى مبارك كما كان يفضل أن يطلق على نفسه ، يبدأ مقاله بالفخر بنفسه وشعره ثم يفسر انعدام باب المديح فى أشعاره بقوله : وذلك أنى ما عرفت شخصا أعظم منى لكى أمدحه بشعرى !

ثم يعرج على قريته سنتريس ويتحدث عن بيته الريفى فيها ثم ينتقل إلى التشبيه بليلى المريضة فى العراق وليلى المريضة فى مصر الجديدة وليلى حى الزمالك وليلى الدمشقية ثم يناوش الدكتور طه حسين فى بعض آرائه الأدبية ويعلن أنه يحترمه لكنه لا يهابه ! ثم يداعب العقاد ويقول إنه يعترف بينه وبين نفسه بأن زكى مبارك أشعر منه لكنه لا يعلن هذا الرأى للناس من باب العناد والكبرياء ويطالبه بالتخلى عنهما ! ثم يبدى رأيا فى مستوى التعليم بالمدارس الأجنبية فى مصر ثم يختم المقال بالحديث عن غيرة زوجته عليه من حب « الليلات » المختلفات فى الزمالك ومصر الجديدة والدول العربية!

ويبدو أنى قد فعلت شيئا شبيها بذلك فى هذا المقال ، فقد تذكرت قصة زكى عبد القادر مع الرجل الذى أودعه مذكراته لأنى أردت أن أقول إنى فى أحلام الشباب قد فكرت فى أن يكون كتابى الأول عن العلاقة بين الرجل والمرأة وأن إمهد له بمقدمة أقول فيها شيئا شبيها بما قاله المرحوم زكى عبد القادر فأدعى أن رجلا متزوجا قد أودعنى أوراقه وطالبنى بنشرها إذا حدث له مكروه ! ثم انشرها بالعنوان الذى اخترته لها لأبرر اصدار شا ب أعزب لم يتزوج بعد لكتاب على لسان زوج غير سعيد فهل تريد بعد كل ذلك ان تقرأ بعض أوراق الرجل الذى أودعنى مذكراته ؟

لا بأس .. سأختار لك مقطوعتين شديدتى الايجاز بعد أن طال الحديث وابتعد عن بداياته :

١ ـ قالت لى زوجتى صباح اليوم : اف .. مللت ! فلم أرد عليها .. من شدة الملل !

* * *

٢ ـ دخلت على زوجتى غرفة الصالون مساء أمس فوجدتنى منهمكا فى قراءة كتاب باستغرق شديد ، فقالت فى دلال ينذر بالمتاعب: ليتنى كنت كتابا لأنال منك كل هذا الوقت وهذا الاهتمام ، فتفكرت فيما قالت قليلا وراقتنى الفكرة فابتسمت قائلا لها :

فكرة رائعة .. لكن أليس الأفضل أن تكونى «نتيجة !» فزمَّت شفتيها محاولة أن تفهم السبب .. وقالت : لماذا ؟

فحاولت أن أخفف من وقع الإجابة وقلت بحذر :

لأن الكتاب قد يبلى من القدم .. أما «النتيجة» فان الإنسان يغيرها كل سنة !

ولم أسمع شيئا بعد ذلك لأنى ابتليت بآفة عدم تمييز الأصوات حين تعلو عن الحد المألوف !

....

ترى هل اخطأت لأنى لم استكمل هذا الكتاب الذى فاتتنى فرصة تأليفه واصداره للابد بعد أن تزوجت ولم تعد تجدى حكاية « الرجل الذى أودعنى مذكرات » فى اقناع أحد أو فى دفع الشبهات العائلية ؟

أم ترى أنى قد خدمت الأدب خدمة جليلة بالتكاسل عن استكماله واصداره ؟ وبعض ما تصدره المطابع تحسُّ فعلا بعد قراءته بأن أفضل ما يقدمه مؤلفوه للأدب والإنسانية هو الامتناع عن « ارتكاب » مؤلفات مماثلة؟

أننى أترك الحكم لك قابلا بعدلك .. وراضيا بقضاء الله وقدره ! .

الحـــب .. من أول « مشاجرة »

جاءتنى رسالة من سيدة روت لى أنها كانت طالبة باحدى الكليات ومن بين أساتذتها أستاذ قوى الشخصية شديد الاعتناء بمظهره ثم حدث ذات يوم أن دخلت المحاضرة متأخرة .. فأنّبها الأستاذ بلهجة قاسية على تأخرها وطلب منها مغادرة القاعة .. فتضرج وجهها بحمرة الخجل .. وخرجت متعثرة والدم يغلى فى عروقها تفكر ماذا تفعل .. هل تمتنع عن حضور كل محاضراته .. هل تشكوه لأبيها لعله يعرف من يستطيع أن يعاتبه على تعمده اهانتها .. أنه لم يكتف بلومها على تأخرها لكنه سخر من عنايتها بمظهرها وتمنى لو أنها أعطت للاهتمام بموعد المحاضرة بعض بعض ما أعطته لاختيار ملابسها .. لقد تعمد أن يجرح كبرياءها .. وأهان جمالها فماذا تفعل؟ كانت واقفة أمام باب القاعة تتناوبها الأفكار ثم أفاقت عليه يقف أمامها يدعوها للحديث معه فى مكتبه.. فأطاعته على غير رغبة وفى مكتبه جلس ودعاها للجلوس وبدلا من أن يطيب خاطرها .. قال لها بهدوء : ابكى حتى تستريحى .. ثم لنتحدث بعد ذلك .. وبكت حتى هدأت ثم تحدث فلم يعتذر لها ، وإنما شرح لها أسبابه فقال لها أنه لاحظ أنها مغرورة بجمالها وباعجاب الطلبة بها ولاحظ أن الجميع يعاملونها باهتمام غير عادى كما لاحظ أنها إذا دخلت المحاضرة متأخرة لا تتسلل خفية أو فى حياء إلى المقاعد الخلفية كما يفعل الطلبة المتأخرون لكيلا يراهم أستاذهم وإنما تمشى فى

ثقة وخطوات بطيئة إلى المقاعد الأولى كأنها ملكة قد شرَّفت المكان وأن كل ذلك ينبئ بغرورها .. وهو آفة لا يرضاها لها ويريدها أن تتخلص منها وأن تعده بذلك .. فهدأت عواصفها وأكدت له أنها لم تتعمد كل ذلك .. فإن كانت قد فعلت فإنها تعتذر وتعد بأن تغير من نفسها ، وخرجت من مكتبه .. وعلى الباب تذكرت أنها اعتذرت .. أما هو فلم يفكر فى ترضيتها بكلمة واحدة .. وامتنعت عن حضور المحاضرة التالية .. لكنها عادت للحضور بعد قليل ولاحظت على نفسها أنها تتذكره كل يوم حين تختار ملابسها وحين تهتم بجمالها.. فتشكره لأنه نبهها إلى بعض اخطائها أحيانا .. وتلعنه فى أحيان أخرى لأنه جرح كبرياءها ولم يهتم باسترضائها .. لكنها فى كل الأحيان « تتذكره » .. وتتخيل أنه يرقب سلوكها فى أى مكان تتواجد فيه حتى بعيدا عن الكلية .. وتحرص على أن تتصرف باحترام وبغير غرور كأنها تنتظر منه أن يقول لها حسنا فعلت ..

وبعد أسابيع اعترفت لنفسها بأنها تحبه رغم استعلائه وعجرفته وبعد أسابيع أخرى سألها ببرود عجيب : هل تمانعين فى أن أتقدم لخطبتك ، فأجابت بضيق : نعم أمانع ! فسألها متعجبا : لماذا فقالت : لأنك متكبر تتصور نفسك ملكا .. يجب أن يقدم له الجميع الحب بغير حاجة لأن يعبر عن مشاعره لهم فنظر إليها ضاحكا وقال : لقد تنازلت عن عرشى لك منذ زمن طويل .. أننى أحبك ولقد اهتممت بك منذ زمن طويل والاهتمام سفير الحب وأصطحبته من يده إلى أبيها .. وخاضت مع أسرتها معركة لاقناعهم به قالوا أنت فى الثانية والعشرين وهو فى الثامنة والثلاثين قالت : لا يهم ، ليست عنده شقة مناسبة، لا يهم .متكبر يتصور نفسه انشتاين أو برتراند رسل قالت : هذا ما يفتننى فيه !

وتزوجا واكتشفت من معاشرتها له أن عجرفته قشرة تخفى وراءها إنسانا رقيقا طيبا ، وأنه يستدعيها فقط عند اللزوم ، حين يتطلب الموقف حسم الأمور واتخاذ القرار .. وسعدت به وأنجبت منه طفلين وشجعها على

مواصلة دراستها .. وكانت حين كتبت لى رسالتها تستعد لمناقشة رسالة الماجستير بعد أيام وتدعونى لحضور المناقشة لتعرفنى بزوجها الذى استشارتنى فى أمره منذ ٥ سنوات قبل أن يصرح لها بحبه فكتبت إليها ردا مختصرا فى باب الردود الخاصة قلت لها فيه اقبليه على الفور حين يتقدم إليك وسوف يتقدم قريبا لأنه إنسان جاد ومستقيم !

* * *

قصة أخرى .. كتبت إلىَّ تقول انها طالبة بكلية جامعية تعيش سعيدة مع أبيها وأمها وشقيقتها ويواجهون متاعب الحياة بالتعاون والتضحية المتبادلة والحب الأسرى الذى يظلل حياتهم البسيطة ، وهى جميلة جمالا مريحا للعين وودود مع الجميع ومن ذلك النوع الذى تحس أنه يختزن فى أعماقه عطف الأمهات والشوق المبهم للسعادة والأمان ، احتاجت ذات يوم إلى أن تصور بعض مذكراتها الجامعية فتوجهت إلى مكتبة قريبة من بيتها بها آلة لتصوير المستندات فوجدت بها شابا متجهما أخذ الاوراق منها فى صمت وصورها وتقاضى الثمن وردها بغير أن يلتفت لها أو يرد عليها حين شكرته .. فخرجت مستاءة من جفائه وبعد أسبوعين احتاجت إلى تصوير مذكرات أخرى فعادت إلى نفس المكتبة فتكرر نفس المشهد بنفس التفاصيل ونفس الجفاء والنفور وخرجت أكثر استياء وقد صممت على ألا تعود وأن تجشم نفسها فى المرة القادمة عناء المشى إلى المكتبة البعيدة حتى لا ترى وجه هذا الشاب السخيف مرة أخرى وبعد أسبوع نسيت قرارها ولم تتذكره إلا حين تجاهل الشاب الرد على شكرها له فغلى الدم فى عروقها.. وعادت إلى المكتبة بعد أن غادرتها وتشاجرت معه ! ففوجئت بالشاب المتجهم الذى يبدو متكبرا يرتبك ويحمر وجهه ويعتذر لها بكلمات متقطعة بأنه لم يتعمد عدم الرد حتى أحست بالخجل فأسرعت بالإنصراف مستاءة من نفسها .. وفى اليوم التالى توجهت إلى المكتبة واعتذرت له فازداد خجلا وشرح

لها أنه طالب بالسنة النهائية بكلية الهندسة ويساعد نفسه بالعمل فى هذه المكتبة من الساعة الثانية بعد الظهر حتى العاشرة مساء ، ثم يسهر مع دروسه إلى وقت متأخر ويصحو مبكرا ليذهب إلى كليته ولا ينام ساعات كافية وربما يكون هذا هو السبب فى «قلة ذوقه » التى لايتعمدها وأحست بسكين تمزق أحشاءها .. وأصبحت تستغل المناسبات للذهاب إلى المكتبة وعرفت من شقيقها أنه شاب مستقيم ومتدين وأن أباه موظف وأخوته كثيرون وأنه يعين أباه على أمره بالعمل فى المكتبة .. وازداد أنين أحشائها.. ونشأت بين الاثنين قصة حب جادة وشريفة .. ونسجا ملحمة من ملاحم الكفاح لبناء عش صغير يجمعهما معا وتخرجت وعملت وتخرج وعمل وبعد ٥ سنوات من هذا اللقاء العاصف دخلا باب مسكن الزوجية لأول مرة وسعدا بحياتهما وما يزالان..

* * *

ومنذ أيام كان يزورنى شابان يستشيراننى فى أمر من أمورهما ولاحظت أنهما زميلان فى مكان عمل واحد وأنهما نسجا معا قصة حب جميلة وقد مضى على عقد قرانهما عام وهما الآن على وشك الزفاف بعد أيام فسألتهما كيف بدأ حبهما فتبادلا النظر والابتسام ، ثم قالت الفتاة : باستثقال كل منا لظل الآخر ، فلقد نفرت منه حين جمعنى معه العمل وكنت قريبة من كل الزملاء والزميلات ما عدا هو وكان قريبا من الجميع ما عداى . وبلغنى أنه يقول عنى أنى مغرورة وثقيلة الظل وبلغه عنى أنى أقول عنه نفس الشىء فازداد كل منا تجاهلا للآخر إلى أن جمعنا العمل ذات مرة فى الصباح قبل أن يأتى الزملاء فسألنى فجاة لماذا اتهمه بالغرور فأجبته بنفس السؤال ثم اشتبكنا فى مناقشة حادة كاد كل منا « يخنق » الآخر خلالها .. ثم هدأنا وتبادلنا الاعتذار فكان ذلك بداية لقيام علاقة زمالة بينى وبينه ولم نشعر إلا وقد تطورت إلى حب عميق ..

أما بطلا هذه القصة يكتبا لى عن حبهما لكنى قرأت عنه فى كتب الأدب العربى ، فقد عاش الفتى فى القرن الأول الهجرى وكان شاعرا فصيحا وسيما من أهل الحجاز يعتز بنفسه وشعره ويتأنق فى ملبسه وذات يوم أورد إبله واديا اسمه وادى بغيض وجلس يستريح وأرسل الابل لترعى فى الوادى .. وبينما هو جالس جاءت فتاتان صغيرتا السن أحداهما طويلة جميلة لتردا الماء فى النبع القريب فمرت الفتاة الطويلة بجوار ناقة الشاب المسترخى بعيدا ، وكان به ميل للاندفاع والكبرياء وسبَّ الفتاة التى افزعت ناقته سبابا مقذعا ففوجئ بها لا تهرول من أمامه خجلى .. كما تفعل مثيلاتها وإنما وقفت وردت عليه سبابه مضاعفا فإذا به يستلذ سبابها ويستطيبه.. ويهدأ غضبه ولا يجد فى نفسه إلا الاعجاب بهذه الفتاة الجميلة الجريئة ، وبعد أيام أو أسابيع جاء يوم عيد وكانت النساء إذا جاء العيد يتزين ويخرجن سافرت للرجال عسى أن يجمع الله بينهن وبين أزواج المستقبل فرآها الفتى مرة أخرى مع أختها ووقع فى غرامها ، فكانت قصة من أجمل قصص الحب العذرى التى اشتهرت فى عصره وخلدتها كتب الأدب واقترن اسم الفتى بفتاته فصار «جميل بثينة» وعرفت الفتاة بفتاها فكانت بثينة جميل ! وبعد أن صار حبه حديث البادية استرجع ذات يوم بدايته العاصفة فقال:

وأول ما قـاد المـودة بينـــنا
بوادى بغيـض يابثينُ ســباب
وقلنـا لهـا قولا فجـاءت بمثله
لكــل كلـام يا بثـين جـــواب !

وحال تشبيبه بها دون زواجه منها كعادة البادية فى ذلك الزمان فزوجت من غيره وهام هو بين المرابع ينشد شعره الجميل كاسمه فى حبها إلى أن مات وهو وهى على الحب مقيمان رغم التنائى !

وقصص أخرى كثيرة قرأتها فى رسائل قراء بريد الجمعة .. وسمعتها من زوارى وقرأتها فى كتب الأدب والشعر والتاريخ كانت بداية الحب فيها دائما مخالفة للبداية التقليدية التى صورها أمير الشعراء فى كلمات موجزة فقال : « نظرة فابتسامة فلقاء » .. فماذا تعنى هذه القصص؟ فى رأيى أنها تعنى أن البداية الحقيقية لاتجاه المشاعر العاطفية لأى إنسان هى استثارة الاهتمام الذى يجعل هذا الإنسان من بين زحام البشر يهُمنا أكثر من أى انسان آخر ، وأن هذا الاهتمام يثور ويتحقق بطرق عديدة منها الطريقة الطبيعة ومنها أيضا الطرق غير الطبيعية ، فالطريقة الطبيعة هى التراكم الكمّى للمشاعر الذى تتجمع فيه ذرات بالتدريج وببطء كما تترسب ذرات السكر المذاب فى الماء على الخيط المتدلى فى الكوب فتصنع بلورات صغيرة تتلاحم مع الوقت حتى تتحول إلى هرم بلورى سميك وصلب يصعب تفتيته أما الطرق غير التقليدية فطريقتان : طريقة الطوفان أو ما يسميه البعض بالحب من أول نظرة وهو ليس فى الحقيقة حبا من أول نظرة لكنه اهتمام من أول نظرة يفتح الطريق للحب الذى يتمكن من القلوب على مهل ، وقد يوهم بالحب وقد يؤدى إليه فى حالات استثنائية .. ثم هناك بعد ذلك هذه الطريقة التى قد تضع أحيانا أجمل قصص الحب والسعادة .. طريقة الصدمة الأولى التى تضع إنسانا فى بؤرة اهتمامك ليس عن طريق الاعجاب به وإنما بالضيق منه .. أو الغيظ أو الاستياء أو الرغبة فى رد الاساءة إليه .. وبعد قليل أو كثير من معايشة هذه الرغبة قد يعيد الإنسان النظر فيمن أراد رد الاساءة إليه فيجده لا يخلو من جوانب تستثير العطف أو الرفق أو الألفة فتبدأ فى التماس الأعذار له .. ثم فى «التبرير» نيابة عنه .. ثم نندهش فجأة حين نكتشف فيه الكثير مما يستحق الحب والاعجاب..

فإذا اصطدمتِ بإنسان فى أول مرة تلتقين به وأحسست أنه أثقل الناس ظلا وتساءلت كيف يطيقه الآخرون بل كيف يطيق هو نفسه وانتويت

الاساءة إليه بعنف فلا تتعجلى الأمور ولا تغلقى كل الأبواب فقد يكون هذا الإنسان من بين كل البشر هو نصفك الآخر الذى زعمت الأساطير اليونانية أنك تبحثين عنه منذ ميلادك .

فإذا كان الأمر كذلك فلا داعى لأن نستسلم لمشاعر الضيق إذا واجهنا زوبعة مماثلة فقد تكون هذه الزوبعة نفسها هى البداية غير التقليدية للطريق الثالث للحب .. طريق الحب من أول مشاجرة .

ولله فيما أودع القلوب من أسراره شئون .. وشجون !..

ذهــول القلــب !

كان يعيش حياته بغير رضا وبغير سخط يقيم فى بيت واسع فاخر يستمتع بمكانة اجتماعية مرموقة ويرتبط بعلاقات متينة مع الطبقة الراقية التى يُعدُ هو نفسه من نجومها ويستمتع بعلاقة حميمة مع ابنه الشاب وابنته التى شارفت مرحلة الشباب ويجمعهم تعاطف خفى متبادل لمعاناتهم معا من تسلط زوجتة الجافة القلب والمشغولة دائما بالشكليات أكثر من انشغالها بالمشاعر .

ولقد جفت المشاعر العاطفية فى قلبه تجاهها منذ زمن طويل وفشلت كل محاولاته لاحيائها وساهمت زوجته الارستقراطية فى وأدها . فمنذ سنوات لم تعد تعرف رقة الاحاسيس أو دفء المشاعر ولم يعد يشغلها إلا اخضاع الجميع لارادتها وتنفيذ رغباتها واصدار الأوامر ... لا تخرج هذا المساء لأن أسرة فلان العريقة الثرية سوف تشرفنا بالزيارة وأرجو أن تعجب زوجته بابنتنا لتختارها لابنها . انهر ابنتك لأنها تريد الخروج فى نفس الموعد لزيارة صديقة لها. خاصم إبنك لأنه يريد أن يجلب العار لأسرتنا باهتمامه بفتاة من عامة الشعب .. تخلص من كل أصدقائك القدامى وامنعهم من زيارة البيت لأن مستواهم لا يليق بمستوانا الجديد.

وهو يرفض أحيانا .. وينصاع فى أغلب الأحوال موثرا السلامة ويبحث فيها عن الفتاة القديمة التى حلم بأن يسكن القلب فى أحضانها فلا يجدها.

وعقب أزمة عائلية من أزماته المتكررة معها غادر البيت ضيّق الصدر إلى المطعم الارستقراطى الكبير الذى يديره ووقف يرقب الجالسين ويتبادل التحية مع نجوم المجتمع الذين يحظى باحترامهم ومودتهم وفجأة رآها فتاة جميلة بسيطة يبدو عليها اضطراب من يدخل مكانا راقيا لأول مرة فى حياته ووجد نفسه يتقدم منها بلا سبب مفهوم ويعرض عليها خدماته وسط دهشة المساعدين. كانت تبحث عن صديق واعدها على اللقاء فى هذا المكان فوقف يتحدث معها ويطمئن خاطرها وجاء الصديق وسعد باهتمام المدير الارستقراطى وتظاهر بصداقته واعتبر ذلك سببا لافتخاره بأهميته أمام الفتاة وبعد قليل جاء الجارسون يحمل هدية المدير الكبير للرجل وفتاته وازداد الصديق سعادة .

ثم تكررت مصادفات اللقاء وعرف المدير الارستقراطى قصة الفتاة وأن وراءها ذكريات بؤس شديد ووحدة وغدر من الصديق الذى نكث بوعده بزواجها ويحاول الآن التخلص منها حتى أنه سعد باهتمامه هو بها عسى أن يكون الحل لأزمته معها !

ووجد الرجل نفسه غارقا فى حبها بلا أى مقاومة ووجدت الفتاة نفسها تحبه بلا احتراس وتغيرت حياة المدير المتحفظ الذى لا يراه أحد إلا فى مجتمعات الطبقة الراقية فأصبح يظهر معها فى كل مكان ويتناول معها الطعام فى مطاعم صغيرة منزوية ويرتاد معها المسارح ويمشى على ضفة النهر ممسكا بيدها فى سعادة .

وعرفت زوجته بالقصة وكعادتها فى اصدار الأوامر أصدرت إليه «الأمر» بأن يترك هذه الفتاة فوراً وإلا أفقدته عمله بصلاتها العائلية والإجتماعية وحرمته من ابنيه وأثارت له متاعب قضائية عديدة ووجد نفسه يرفض لأول مرة إطاعة أمر من أوامرها وانفجر فيها بكل ما ضاق به صدره طوال

٢٥ سنة وصارحها بأنه سوف يقيم الدعوى للحصول على الطلاق ليتزوج من هذه الفتاة التى تقول عنها أنها من الرعاع .

وتذهل الزوجة المتحجرة وتحس بالخطر لأول مرة وتسأله متعجبة : من أجل هذه الفتاة الحقيرة تهدم كل شىء وتهجر بيتك الفاخر ومجتمعك الراقى ؟

فيجيبها فى حسرة : بل من أجل أشياء كثيرة لا أجدها فى عالمك هذا ومن أجل احساس امارسه لأول مرة وسعادة لم أجربها من قبل ، سعادة أن أحب انسانا ويحبنى ولا أطلب غيره ولا يرجو غيرى !

ثم غادر بيته واتصل بابنه وابنته يشرح لهما موقفه فوجد لديهما قدرا كبيرا من التفهم لمحنته .

وشنّت زوجته حربها المقدسة ضده وأبت أن تطلب الطلاق أو تتفاهم معه وديا عليه فرفضت المحكمة الأمريكية الحكم له به واستعدَت زوجته عليه كل مجتمع المدينة فأصبح الجميع يتحاشون دعوته إلى مناسباتهم رغم تعاطف بعضهم معه وأثارت عليه ادارة شركة المطاعم الكبرى التى يعتبر من أبرز مديريها فأقدم على عمل جر عليه المتاعب فيما بعد فاستخدم صلاحياته كمدير وصرف لنفسه من البنك مبلغا يعادل ما رآه مكافأة عادلة له عن سنوات خدمته ثم اصطحب فتاته وسافر إلى مدينة أخرى وأقام فى أحد فنادقها وتوالت عليه المتاعب فأبلغت الشركة بتحريض من زوجته الشرطة ضده وفصلته وشوهت سمعته فى كل مكان وبدأ يدفع ثمن اختياره لسعادة القلب على حساب كل الاعتبارات غاليا وبعد أن كانا يقيمان فى فندق كبير اضطرا تحت ضغط الحاجة إلى الانتقال إلى مسكن صغير وبعد أن كان مديراً مرموقا لأغلى المطاعم يخطب وده كبار القوم اضطر للعمل كنادل بسيط فى مطاعم شعبية لا يرتادها إلا السوقة ولا مجال فيها لقواعد اللياقة

وفن الاتيكيت ، وكلما اكتشف أصحاب المطاعم شخصيته الحقيقية ولاحقته تهمة السرقة السابقة طرد من عمله وفقد مصدر رزقه فإذا اشفقت عليه فتاة القلب مما صنعته بحياته قال لها بايمان : أن تحب إنسانا ويحبك تجربة ثمينة تستحق كل ما نؤديه من ضريبة عليها .

وتحاصره المتاعب من كل جانب حتى بدأ يشفق على فتاته من معاناتها لشظف العيش معه وهى من كانت تأمل فى أن تجد معه الكرامة والأمان ، وييأس من الحصول على حكم الطلاق ليتزوج منها وتبلُغه أنباء بأن زوجته قد اكتشفت مخبأه الأخير وأنها تدبر لأن تلقى الشرطة القبض عليه وعلى فتاته ويسلم بأن نيل السعادة لم يكن مطلبا سهلا كما تصور ويرفض بالرغم من كل الظروف الوساطة بينه وبين زوجته وشروطها للعودة وهى أن يهجر الفتاة ويعود إلى القفص الذى فرَّ منه مقابل سدادها للمبلغ المختلس من مالهما المشترك الذى صادرته واسقاط الجريمة عنه .

ويقرر أن يضحى بسعادته الخاصة ويهجر فتاة القلب حتى تكف المتاعب عن مطاردتهما فيتسلل إلى حيث لا تعرف زوجته والشرطة مكانه .. ولا تجده فتاته أيضا التى كانت قد بدأت تعمل بالمسرح وتحاول أن تشق طريقها فيه .

ويغيب عن الصورة تماما وتحزن الفتاة لفراقه لكنها أبدا لاتتهمه بخيانتها أو بالغدر بها إنما تتأكد بقلبها أن وراء ابتعاده الإضطرارى عنها ما هو أشق عليه من بُعده عنها وأنه لابد قد أراد أن يحميها باختفائه من شىء مجهول لا تعرفه .

وتدور الحياة دورتها وتحقق الفتاة نجاحها خطوة خطوة وتصبح خلال سنوات نجمة لامعة من نجمات المسرح تنشر الصحف صورها ويقف المعجبون على أبواب المسرح لتحيتها ويجيئها الصديق القديم الذى عرَّفها برجلها الغائب فتعرف منه قصة المال المختلس وتعقب الشرطة له لأول مرة

وتفهم لماذا عجز عن أن يجد عملا لائقاً بعد أن ترك منصبه أو لماذا فشل فى أن يحتفظ بمستوى حياته الذى اعتاده وتحس بوخز الالم ينهش صدرها فتهتف مذهولة وباكية : يا إلهى لقد حطمت حياته .. وتحُل كل ذلك من أجل.. واختفى أيضا من أجلى !

وتتابع صور الحياة وفجأة يعود المختفى ذات ليلة باردة يتلمس طريقه بصعوبة وهو يرتجف من البرد إلى المسرح الذى تعمل به النجمة الساطعة وهو شديد الاعياء وملابسه رثة قديمة وذقنه طويلة وتخرج النجمة وسط هالة من المعجبين فيستجمع صوته الضعيف ويناديها هامسا : كارى !

فيضطرب قلبها وتستدير ناحية الصوت ثم تصرخ من الفرحة حين تراه وتترك الجميع وتندفع إليه فيكون أول ما يقوله لها بنفس الصوت الخافت :

علم الله أنى قاومت كثيرا أن أفعل ذلك .. لكنى .. لكنى .. لكنى.. جائع!

وتتأوه كارى بلوعة وتنهمر دموعها بغزارة وتصرخ فى مدير اعمالها أن يحضر طعاما فاخرا على وجه السرعة وتمسك بيديه وقد أحست بأنها قد عثرت على سعادتها الضائعة وتعود به إلى غرفتها بالمسرح وتجلس تحت قدميه وهو يرتجف من البرد وتنساب دموعها بلا توقف وهى تحدثه عن احساسها بالذنب والألم لانها دمرت حياته بحبه لها فيوقفها باشارة من يده ويقول لها بنفس الصوت الضعيف : هل تذكرين ما كنت أقوله لك: أن تحب إنسانا ويحبك .. تجربة ثمينة تستحق كل ما نؤديه من ضريبة عليها ! أننى لست نادما بالمرة ولا أريدك أن تحسى بالندم على سعادة حقيقية مهما كانت المتاعب التى عانيناها من أجلها .

ويسيطر عليها الحماس والانفعال فتقول له : ستعود معى إلى البيت وسيتولى المحامون اصلاح كل شىء وسيتم زواجنا فور الحصول على الطلاق ، وسأتركك الآن لأحدث مدير المسرح لكى يعينك فى وظيفة تليق بك بالمسرح وسيعود مدير أعمالى بالطعام فورا.. فانتظرنى ولن أغيب سوى دقائق.

وتخرج « كارى » من الغرفة وهى فى قمة الانفعال وينظر إليها وهى تغيب ثم ينظر إلى كيس نقودها الذى تركته مفتوحا إلى جانبه وإلى الورقة المالية الكبيرة التى أخرجتها منه ووضعتها قريبا منه فيعيد الورقة الكبير بأطراف أصابعه إلى الكيس المفتوح .. ثم ينبش بها فى القطع المعدنية الصغيرة فى قاعه ويخرج قطعة واحدة تكفى لوجبة من الحساء الساخن تدفع عنه البرد والموت جوعا ثم يغادر غرفتها والمسرح ببطء ويختفى قبل أن تعود فتاته !

وتنتهى أحداث القصة الرومانسية الجميلة التى ما شاهدتها مرة إلا وهممت بأن « أجرى » وراءه لأعيده إلى المسرح مرة أخرى متخيلا فجيعة الفتاة حين تعود سعيدة من مكتب مدير الفرقة لتزف إليه البشرى ولتصحبه إلى بيتها بعد أن يتناول عشاءه ثم بعد ذلك يبدآن معا اصلاح الأخطاء وجمع الشمل وتحقيق حلم الزواج فتجده قد تحول إلى سراب مرة أخرى.. وتركها للنجاح الذى لا يعوض وحده إنسانا عن سعادة القلب، فاشفق عليها فى الخيال كما أشفق على كثيرين فى واقع الحياة وأتساءل مهموما متى يسكُن كل قلب إلى طائره .. وتغرد الحياة اغاريد السعادة للجميع.؟

وحين كنت فى لندن منذ أسابيع أعاد التليفزيون البريطانى إذاعة هذا الفيلم القديم فتسمرت فى مقعدى أشاهده للمرة العاشرة وتخليت عن كل ارتباطاتى حتى انتهى مخلفا فى نفسى نفس الأثر الذى صنعه بها فى أول مرة شاهدته فيها منذ أكثر من ٢٥ سنة وتعجبت من ذلك وحاولت أن أفسره فلم أجد لذلك تفسيرا إلا أن تكون القصة القديمة لم تفقد قدرتها بعد على أن تمس قلوب الناس مع اختلاف الظروف .

ورغم كل هذه السنوات مازلت أتمنى أن يعود ذلك المحب الذى لم يحس بالندم على تجربته رغم ما قدمه من تضحيات لأساله هل انصرف لأنه عرف بالتجربة المريرة أن اختلاف عالمىّ المحبينْ لا يثمر غالبا إلاّ شقاءهما كما

شقى هو حين هبط من دنياه الراقية إلى دنياها البسيطة فخشى الآن أن تشقى بهذا الاختلاف بعد أن أصبحت دنياه هى السفلى ودنياها هى العليا ؟ أم لأنه رأى بحكمة بعيدة النظر أن التجربة قد اتمت فصولها وأن محاولة اطالتها لن تمد عمر الحب أكثر مما عاش وبالتالى فلا داعى لأفساد القصة الجميلة لأن عمرها الطبيعى قد توقف عند هذا الحد . لا أعرف لكنى كلما فكرت فى هذه القصة وفى مثيلاتها من قصص الحب الذى يغزو بلا مقاومة قلوب البشر الآمنين على غير توقع فتزلزل كيانهم وتعرضهم للمتاعب العائلية والاجتماعية تذكرت تلك العبارة التى وردت فى العهد القديم « سيبلونك الله بالجنون .. والعمى .. وذهول القلب!» ودعوت الله أن يحمى الجميع من ذهول القلب الذى أحسَّ به بطل القصة حين رأى هذه الفتاة البسيطة لأول مرة ثم تذكرت تلك العبارة الأخرى التى جاءت على لسانه عن التجربة الثمينة التى تستحق كل ما نؤديه من ضريبة عليها فازدادت حيرتى بين الاثنتين ولم أعرف ماذا أطلب للآخرين ولنفسى وماذا أعيذهم منه ثم خرجت من حيرتى بدعائى الدائم والمفضل وهو: اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه.. فالطف بنا يا ارحم الراحمين وبالجميع ربنا وتقبل دعاء !

لهيب المدفأة

سأبوح لك بسر أرجو أن تكتمه بينى وبينك ، ذلك أنى من المنكوبين بآفة لا أعرف إن كان غيرى يشاركنى فيها أم أنى أنفرد بها وحدى هى آفة « طول الذاكرة » على غرار مرض طول النظر ! والمصاب بطول النظر يرى الأشياء البعيدة عنه بوضوح ولا يرى الأشياء القريبة منه بدقة ويحتاج لنظارة خاصة تتيح له رؤيتها .. وهذا بالضبط ما أعانى منه بالنسبة للذاكرة ، فأنا أتذكر بوضوح المناسبات والالتزامات التى سيحلّ موعدها بعد عدة شهور وأحيانا سنوات وأظل متنبها لها ومستعدا لأدائها .. فإذا اقترب موعدها تراجعت فى ذاكرتى شيئا فشيئا ثم نسيتها تماما وحين اتنبه لها اكتشف فجأة وبكل أسف أنها قد فاتت وأن جهدى للاستعداد لها قد ضاع عبثا ! أما الحرج الذى أواجهه حين اهبُّ لأداء واجب اجتماعى ثم اكتشف أن مناسبته قد فاتت منذ أيام ، وأحيانا منذ أسابيع فحدث عنه ولا حرج .. فقد أهب من نومى مثلا سعيدا وأخرج الهدية التى اشتريتها منذ فترة طويلة وأخفيتها فى مكتبى لكى افاجئ زوجتى بها فى عيد ميلادها وأقدمها لها فخورا بحرصى على تذكر هذه المناسبة العائلية الهامة .. فلا أجد سوى نظرة لائمة لأن عيد الميلاد قد فات منذ عشرة أو خمسة عشر يوما! مع أنى اتخذت كل الاحتياطات الواجبة لكيلا أكرر أخطاء الأعوام السابقة ، وسجلت الموعد فى أجندة المكتب .. وراجعت نتيجة الحائط فى البيت

عدة مرات خلال الشهر لأتأكد من عدم فواته . لكنى فعلت كل ذلك قبل أن يحل الموعد بفترة طويلة وعندما اقترب فعلت آفة « طول الذاكرة » فعلها وسقط الموعد فى بئر النسيان ..

وليت الأمر اقتصر على مثل هذه المناسبات العائلية .. فلست فى الواقع أريد أن اتذكر الآن ما حدث حين أردت أن أقدّم أوراق ابنتى للمدرسة لأول مرة .. ولا كيف اكتشفت رغم كل استعداداتى الطويلة السابقة لأن آخر موعد للتقديم قد مضى قبل شهر ، ولا كيف اضطررت لأن أتشفع عند الرجل الفاضل الدكتور مصطفى كمال حلمى وكان وزير التعليم وقتها لكى يستثنيها من موعد القبول لا أريد أن أتذكر كل ذلك لأن الله امر بالستر ولأني من ناحية أخرى أفضل حالا من صديقى الأديب الفنان أحمد بهجت الذى أيقظته زوجته بالحاح شديد صباح يوم منذ أكثر من ٢٥ سنة فنهض مستاءً لايقاظه فى هذا الوقت المبكر فوجد طفليه يرتديان ملابس المدرسة وينتظرانه ليصحبهما إليها فى اليوم الأول من العام الدراسى كما يفعل الآباء المثاليون مع أطفالهم فتذكر فى هذه اللحظة فقط أن أوراقهما التى كان ينبغى أن يقدمها للمدرسة منذ ثلاثة شهور مازالت فى حقيبته الجلدية كما هى وأن موعد التقديم الذى راحت زوجته تذكره بقرب انتهائه كل يوم قد انتهى منذ شهرين .. وخشى أن يصارح زوجته بالحقيقة لكيلا يغمى عليها فارتدى ملابسه واصطحب ولديه ، كأنه ذاهب بهما إلى المدرسة ، وتوجه بهما إلى جريدة الأهرام ليضع مشكلته التى تهدد حياته الزوجية بين يدى زميلنا محرر شئون التعليم بالأهرام ! كما لا داعى أيضا للرجوع بالذاكرة إلى الوراء أبعد من ذلك لكيلا أستعيد مشاكل تقييد المواليد بعد انتهاء الفترة القانونية لتسجيلهم رغم التذكر التام والتهيؤ النفسى الطويل لأداء ذلك قبل الولادة أو مشاكل تجديد رخصة السيارة بعد انتهاء الموعد القانونى مع دفع الغرامة الفادحة أو دفع فاتورة التليفون بعد الموعد الخ .. فهذه كلها

«سفاسف » لا أريد أن تشغلنى عن الشىء الأهم وهو معاناتى مع آفة « طول الذاكرة » .. هذه والتى تتخذ أحيانا أشكالا أخرى كأن أتذكر الأشياء التى جرت منذ عشرين أو ثلاثين سنة وتفاصيلها بدقة شديدة ثم أعجز فى بعض الأحيان عن تذكر شىء جرى منذ ثلاثة أو أربعة أيام بوضوح ، أو أن اتذكر وأنا أكتب جملة قرأتها فى كتاب منذ ثلاثين عاما وربما رقم الصفحة أيضا ثم أعجز عن تذكر أين وضعت الكتاب نفسه رغم أنه كان أمامى منذ أيام .. الخ وقد شاء سوء حظى أن يكون الفارق بين عيد ميلاد زوجتى وعيد زواجنا السعيد ثلاثة أيام فقط لكى يزيد من صعوبة تذكر أيهما يأتى قبل الآخر .. وأيهما أقول فيه كل سنة وأنت طيبة وأيهما أقول فيه كل سنة ونحن معا ! هذا إذا تذكرتهما فى الوقت المناسب أصلا .. ولم آت فى نفس اليوم من الشهر التالى مبتهجا لأقدم التهنئة فأواجه نفس النظرة اللائمة ! مع أنى من المؤمنين بأهمية اللفتات الصغيرة فى تنبيه المشاعر الزوجية والحفاظ على الوئام العائلى ، ومن المطالبين دائما الأزواج والزوجات والأصدقاء بألا يهملوا هذه الأشياء الصغيرة لأهميتها البالغة فى تجديد الحياة وإرضاء النفوس ودغدغة المشاعر ، وأردد دائما لمن يستشيرنى ما قرأته من أن أحد القضاة الأمريكيين الذى نظر آلافا من قضايا الطلاق قد سئل بعد انتهاء خدمته عن أهم أسباب الطلاق كما خبرها فأجاب : الأشياء الصغيرة التى ينسى الزوجان الاهتمام بها .. فتؤدى إلى فتور المشاعر ثم إلى الشاق والمشاكل ثم إلى وفاة الحب ووقوع الطلاق .. أما الأشياء الصغيرة التى عناها فقد حددها بأنها إهمال الزوجين للمجاملات المتبادلة بينهما اعتمادا على العشرة الطويلة .. كنسيان الزوجة أن تودع زوجها بكلمة رقيقة ونسيان الزوج أن يقبل زوجته بعد العودة أو أن يبدى إعجابه بتسريحة شعرها وفستانها الجديد ونسيانه اطراء ذوق زوجته وجودة طعامها ونسيان الزوجة بعد فترة من الزواج استخدام مفردات لغة الحب فى حديثها

معه لتذكره بأنه مازال حبها الكبير وفارسها الوحيد وهكذا يفتر الحب وتهب الزوابع..

وأذكر أن قارئة قد سألتنى مرة كيف تفسر انفصال زوجين تزوجا بعد قصة حب ملتهبة ثم لم يصمد الحب أكثر من سنوات .. هل يموت الحب فجاة بالسكتة القلبية ؟ فاجبتها : ليس بالسكتة القلبية وإنما بالجوع العاطفى الطويل كما قد يموت الشاب القوى بعد فترة من الضعف والهزال إذا أضرب عن الطعام والماء لعشرة أو عشرين يوما ، فالحب كلهيب المدفأة التقليدية يحتاج لكى يظل يتراقص دائما إلى أن نلقى إليه من حين إلى آخر بقطع جديدة من الخشب فإذا توقفنا عن ذلك اعتمادا على قوة اللهب وحدها ظل اللهب عاليا إلى أن يستنفد مخزونه القديم ثم يخفت شيئا فشيئا إلى أن ينطفئ ويظل دافئا لفترة ومستعدا لأن يتأجج من جديد إذا استدركنا الأمر ومنحناه دفعة أخرى أما إذا أهملناه للنهاية فإنه يفقد دفئه ويصبح رمادا باردا قد يستحيل اشعاله من جديد والحب الصادق باستمرار اكثر قدرة على مقاومة هذا المصير .. وأكثر استعدادا لأن يرتفع لهيبه ويتراقص مرة أخرى مع كل بادرة صغيرة تلقى إليه ..

لهذا فمن واجبنا أن دائما نحرص عليه وألا نحكم عليه بالاعدام باهمال مثل هذه الأشياء الصغيرة ، ليس بين الأزواج والزوجات وأنما أيضا بين الأصدقاء وفى العلاقات الإنسانية والاجتماعية فضياع الود مأساة .. وضياعه لأسباب تافهة كارثة أكثر إيلاما ومأساوية .. ومن أجمل ما قرأت من أشعار بيتان لشاعرة أمريكية اسمها « ادنا سانت ميلاى » يقولان :

ليس يشقينى أن الحب قد مات

وإنما لأنه قد مات لأتفه الأسباب !

ولانى أؤمن بكل ذلك فلقد نهضت للبحث عن علاج لآفة طول الذاكرة التى أعانى منها ليس فقط لحماية الوئام العائلى ، وإنما أيضا لحماية

صداقاتى وعلاقاتى الإنسانية من التصدع والانهيار ، فكل علاقة إنسانية تحتاج إلى رعاية متبادلة من الطرفين للحفاظ عليها وتجديدها واحيائها ، لكيلا يجد الإنسان نفسه وحيدا فى الحياة محروما من جنة الصداقة والمشاعر الإنسانية . وتبادل المجاملات والاهتمام الإنسانى . والحرص على أداء الواجبات الاجتماعية وسيلة أساسية للحفاظ عليها ورعايتها ..

ولأنى ممن لا يملكون أى سلاح لمواجهة الحياة سوى المعرفة فلقد قرأت كثيرا عن ضعف الذاكرة وكيفية علاجه ، وعرفت لأول مرة أن الذاكرة تحتاج لكى تحتفظ بشبابها إلى رياضة خاصة بها كما يحتاج الجسم إلى الرياضة البدنية ليحتفظ بحيويته. ورياضة الذاكرة هى اجراء تدريبات التذكر والاستعادة كل يوم لفترة قصيرة لكى تتنبه خلاياها وتزداد نشاطا ، ومن أشهر من يمارسونها من الأعلام الأديب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ والكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل وكلاهما يبدأ يومه بحفظ بضعة أبيات من الشعر العربى .. واسترجاع بضعة أبيات أخرى من محفوظاته القديمة ليعرف هل نسيها أم لا .. فيساعده ذلك على تجديد الذاكرة وتنبيهها ، وكان العقاد العظيم يفعل نفس الشىء خلال نزهته اليومية على الأقدام فى شوارع مصر الجديدة .. ومنذ عرفت ذلك أصبحت أبدأ يومى بممارسة تدريبات الذاكرة فأحفظ وأستعيد بضع آيات من الذكر الحكيم ، ثم أحفظ وأستعيد بضعة أبيات من الشعر القديم ، ثم احفظ واستعيد بضع كلمات من اللغة الانجليزية ومثلها من الفرنسية وحاولت فى البداية أن أتعلم الألمانية اعتمادا على مجهودى الخاص .. فتوقفت بعد فترة تاركا لله المنتقم الجبار عقاب واضع أسسها وقواعدها وجرْس كلماتها المنفر ، ثم أراجع بعض قواعد النحو فى اللغة العربية لكيلا تسقط مع الزمن من ذاكرتى المجهدة .. ولم أعجب حين علمت أن نجيب محفوظ يضع على مكتبه وهو يكتب كتب النحو المدرسية لكى يرجع إليها إذا استشكل عليه

شىء .. ولا يستغرق هذا البرنامج بكل فقراته أكثر من ٢٠ أو ٢٥ دقيقة أبدأ بعده قراءتى أو الكتابة .. وكلما احتجت إلى مراجعة بعض صفحات كتب النحو سألت الله العلى القدير الا يعفى النحاة القدامى من حسابه يوم الحساب بسبب عقدهم النفسية وتعمدهم الاعسار بدلا من التيسير لكى يظلوا قلة مميزة ونادرة ، وتذكرت حكاية أحدهم وهو النحوى القديم على بن عيسى الربعى الذى وضع شرحا لكتاب سيبويه وكان معروفا بحدة الطبع وغرابة المزاج فنازعه ذات يوم أحد تلامذته فى مسألة نحوية فنهض غاضبا وأخذ كتابه ووضعه فى جردل وصب عليه الماء فساحت الكلمات واصطبغ الماء بلون المداد وراح يرشه على الجدران وهو يقول بعصبية شديدة : والله لا أجعل أولاد البقالين نحاة أبدا !

ولم يكن هذا هو كل غرائبه فقد كان مبتليا بهواية قتل الكلاب وكسر أرجلها ! وعضه ذات يوم كلب فانحنى النحوى الكبير على الكلب وعضه فى فخذه عضة جأر منها الكلب المسكين بالصراخ !

ومن أمثال هؤلاء النحاة الذين اتسموا غالبا بالاغراب والتعقيد جاءت بعض قواعد النحو التى كان من السهل عليهم تبسيطها لو أرادوا ، وجاء أيضا اضطرار كل من يعمل بالكتابة لأن يضيف إلى مشاكله العائلية والإنسانية مع الذاكرة ، مشكلة اضافية أخرى خاصة باسترجاع قواعد النحو من حين إلى آخر لكيلا ينساها كما قد ينسى عيد ميلاد زوجته أو زيارة صديق مريض له أو تهنئة صديق آخر بما يستحق التهنئة وهذه كلها أشياء صغيرة .. لكنها ضرورية جدا لكى يستمر لهيب الحب والصداقة والوئام بين الأشخاص متراقصا دافئا طروبا دائما باذن الله !

وهكذا دائما تتشابك الأشياء .. فالأشياء الصغيرة قد تؤدى إلى معاناة كبيرة ..

ومحاولة تذكر عيد ميلاد زوجتك .. قد يقودك إلى استرجاع قواعد النحو فى اللغة العربية .. ولا عجب فى ذلك .. فمعظم النار من مستصغر الشرر !!

يا عزيزى .. كلنا « صغار » !

فى حوار بين المفكر الفرنسى اندريه مالرو ورجل دين أمضى ١٥عاما يستمع إلى مشاكل الناس وهمومهم سأله مالرو : ماذا تعلمت من اعترافات البشر؟

فأجاب : تعلمت أن الناس أتعس كثيرا مما نظن !

ولقد استشهدت بهذا الحوار مرارا فى التدليل على أن هموم البشر كثيرة وأننا ينبغى ألا نحكم على الآخرين من مظاهرهم التى قد تبدو لاهية .. أو قاسية أو متسلطة لأن الاقتراب منهم قد يكشف لنا عن مآس تختفى وراء الأقنعة الظاهرة .

ومنذ أيام عدت لقراءة كتاب اندريه مالرو من جديد فتوقفت مرة أخرى أمام ذلك الحوار واكتشفت أن لاجابة الرجل على سؤال المفكر بقية لا أعرف كيف تجاهلتها مع أهمية دلالتها ، ولا كيف رحت طوال تلك السنين أتذكر هذا الحوار وأستشهد به عند الضرورة من غير أن التفت إلى هذه البقية المعبرة .. فلقد استطرد الرجل بعد أن قال له أنه تعلم من الاعترافات أن الناس أتعس كثيرا مما نظن . فقال :

ـ .. وأنه ليس هناك أشخاص كبار !

يا الهى .. نعم ليس هناك أشخاص كبار فعلا لأن الكل صغار أمام مشاكلهم وأمام الألم والوحدة وافتقاد التقدير ، العطف والاطمئنان ، وأمام

الخوف من المجهول ومن المرض ومن فقدان الرفيق والنصير ومن الموت ومن تساقط أوراق العمر ومن تهاوى الأحبة والأعزاء واحدا وراء الاخر حاملين له النذير باقتراب النهاية ، ومن ضياع الشباب وضياع بهجة العمر ومن عشرات المخاوف والهواجس .. صغار أمام الهموم والأحزان حتى لكانى أكاد أصدق فى بعض الأحيان رغم تفاؤلى الدائم ، ما قالته إحدى شخصيات مالرو نفسه فى أحد أعماله : ما الإنسان ؟ أنه ليس سوى كومة بائسة من الأسرار !

فإن كان فى هذه الحقيقة شيء مفيد فهو فى أننا قد نتعلم منها ألا نحسن الظن بقوة الآخرين وألا نقسو عليهم وألا نتمادى فى إيلامهم.. وأن نتلمس الطريق للتخفيف عنهم إذا استطعنا .. لانهم مهما بدا لنا من ادعائهم للقوة فهم لا يستحقون منا إلا العطف !

فالعطف هو ما يحتاجه الإنسان دائما من أقرب الناس إليه حتى ولو لم يعرف ذلك ، والذين يقولون لك أنهم لا يريدون شفقة من أحد أو يكرهون أن يعاملهم الآخرون باشفاق هم أحق الناس بالعطف والشفقة .. فقط علينا ألا تكون الشفقة معهم استعراضية أو مظهرية لكيلا تستثير كوامن النقص فى الطبيعة البشرية .

أما فيما عدا ذلك فالكل فى حاجة إلى عطفك .. وأنت فى حاجة إلى عطف مَن حولك وأقرب الناس إليك لأنك إنسان ولأنك ضعيف مهما كانت لك من أسباب القوة والقدرة والتفوق .

لقد روى الفنان العظيم شارلى شابلن فى مذكراته أنه دعا العبقرى البرت اينشتاين مع زوجته إلى العشاء فى بيته ، وكان اينشتاين من هواة العزف على الكمان ، فدعا شارلى أربعة من العازفين المحترفين ليعزفوا الموسيقى لضيوفه بعد العشاء وأحضر اينشتاين معه كمانه ليشاركهم العزف ،

وعزف معهم بالفعل لكن العازفين لم يتحمسوا لاشتراكه معهم بسبب سوء عزفه ، وبعد عدة مقطوعات استأذنوه فى أن يعزفوا وحدهم لبعض الوقت لأنه يفسد عليهم الايقاع فجلس إلى جوار زوجته وكانت سيدة بدينة عطوفا تعامله كابنها ولا تخفى فخرها بأنها قرينته وهو يتململ كالطفل ويسأل بصوت خافت متى يتاح له العزف مرة أخرى ، فتربت زوجته على يده بحنان وتشجيع وتقول له بصوت مسموع : ولايهمك .. لقد عزفت أفضل منهم جميعا ! وشابلن وضيوفه يرقبون المشهد ويعجبون لحاجة هذا العبقرى إلى لمسة تشجيع من زوجته تقنعه بأنه يجيد العزف وبأنها فخورة به لذلك .. لكن لا عجب فى ذلك لأن الإنسان مهما كان عبقريا أو قويا صغير يحتاج إلى ربتة العطف على يده وإلى لمسة التشجيع من شريك حياته وحبذا لو أتيحت له من الجميع !

ثم تأمل أيضا ما رواه نقاد الفن من أن الفنان العظيم بيكاسو كان فى سنواته الأخيرة ينهض من نومه كل يوم ويشرب القهوة مع زوجته الأخيرة.. ثم ينفجر فجأة فى البكاء وهو يقول لها أنه يحس بأنه قد انتهى كفنان وأنه لن يستطيع أن يرسم خطا واحدا فى لوحة جديدة .. فتأخذ رأسه على صدرها وتغمره بقبلاتها وتهدهده كالطفل وتؤكد له بعطف الأمهات أنه سوف يرسم أبدع مما رسم طوال حياته .. وأنها واثقة من ذلك لأنه فنان عظيم .. ولأنها تحبه ولأنه لا يمكن أن يخيب ظنها فيهدأ قليلا ثم تسحبه برفق من يده لتجلسه أمام اللوحة وتضع الفرشاة أمامه وهى تشجعه بنظراتها التى تفيض حبا وحنانا على أن يبدأ فيبدأ مترددا .. وهى تحثه وتربت على رأسه وظهره بيدها .. فلا تمضى دقائق حتى تنطلق الريشة فى يده وترسم أجمل لوحاته وأكثرها قيمة فنية ! ويتكرر نفس المشهد بنفس تفاصيله بعد يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر ويستمر حتى اليوم الأخير من حياته .فهل كان بيكاسو فى حاجة لشهادة من زوجته بأنه فنان عظيم لكى

يعاود الرسم ؟. لا بالطبع ، وإنما كان فى حاجة إلى هذا ليستشعر العطف والحنان من شريكة حياته وليتخلص من قلق الفنان وهواجسه ومخاوفه كإنسان .. ليواصل إبداعه .. وهكذا كل إنسان ، لأن كل إنسان ضعيف وصغير فى نظر نفسه مهما علا شأنه .

وفى فيلم أمريكى قديم كان العمل يجرى فى إنشاء سد على نهر المسيسبى سيحجز مياهه فى إحدى المناطق فتغرق جزيرة صغيرة وسط النهر ، وتطلب الأمر تهجير سكان الجزيرة القلائل ونقلهم إلى مساكن بديلة فى منطقة بعيدة ، وتم تهجير كل السكان وبقيت سيدة عجوز تعيش وحيدة فى بيت خشبى صغير مع كلب وبضع دجاجات وخروف رفضت باصرار هجر كوخها والانتقال إلى الشقة السكنية التى وفرتها لها الولاية.. واستمر العمل فى بناء السد وارتفع منسوب المياه حتى كاد يبتلع الجزيرة وكوخ السيدة العجوز وهى مازالت ترفض مغادرته وتتصدى لرجال الشرطة حتى لم يعد هناك مفر من ترحيلها بالقوة ، وأعد مأمور المدينة حملة من رجال الشرطة لنقلها وهدم كوخها لكن باحثا اجتماعيا شابا كان زار السيدة مرارا محاولا اقناعها بالرحيل، طلب من المأمور أن يعطيه فرصة أخيرة لمحادثتها.. وركب زورقا إلى الجزيرة ، وجلس إلى السيدة ولم يحدثها عن الرحيل لكنه طلب منها أن يشاركها شرب القهوة واحتسى فنجانا وراء فنجان وهو يحدثها عن طفولته وكيف نشأ يتيما وحيدا فلم ير أمه ولم يعرف عطف الأمهات وكيف أنه وجد نفسه مطالبا فى النهاية بأن يتقبل اقداره ويتوافق معها وإلا جرفته أمواج الحياة ، ثم قال لها أنه يحس تجاهها بالألفة والاحترام ويظن أن هذا هو نفس الإحساس الذى كان سيحسه تجاه أمه لو كانت له أم .. وأنه يلتمس لها العذر فى رفضها الانتقال من الجزيرة لأنها عاشت فيها كل حياتها لكنه يتساءل هل من الممكن أن تقبل الانتقال إلى الشقة الجديدة لكى يستطيع أن يزورها مرة كل أسبوعين ليطمئن عليها

ويتبادل معها الحديث ويتناول معها فنجانا من القهوة .. لأنه مثلها وحيد ولا يجد من يهتم بأمره ؟

فإذا بالسيدة العجوز العنيدة تلين .. وتنهض معه لتجمع حاجاتها وتنتقل معه إلى المسكن الجديد .. وكانت اللحظة السحرية التى حطمت عنادها هى اللحظة التى استشعرت فيها صدق تعاطفه معها .. وتقديره لظروفها ووحدتها .. لأننا جميعا نتلهف على عطف الآخرين رجالا وكبارا ونسعد بأن يبدى الآخرون تعاطفهم معنا وتقديرهم لظروفنا .. ولا فرق فى حاجتنا للعطف والحنان بين النساء والرجال .. ولا بين النساء والرجال.. ولا بين المشاهير والمغمورين ولا بين عظماء الناس والتافهين منهم ولا بين القساة غلاظ القلوب والرحماء منهم .

فحتى السفاح النازى ادولف هتلر كان يستمتع بشدة بعطف صديقته ايفا براون التى شاركته سنواته الأخيرة وعاشت معه فى المخبأ المحصن تحت الأرض ، وعندما توالت الهزائم فى نهاية الحرب العالمية الثانية وبدأ قواده يفكرون فى الصلح مع الحلفاء للاستسلام كان هتلر يستشيط غضبا كلما اكتشف « مؤامرة » من هذا النوع فلا يجد التأييد والعطف إلا من ايفا التى كانت تقول « مسكين ادولف ، لقد تخلى عنه الجميع ! » . وكان هتلر يعتقد أنه لم يخلص له أحد حتى النهاية سوى صديقته أيفا ، لهذا فقد قرر أن يكرمها التكريم الأخير بأن يتزوجها زواجا رسميا تحت قصف المدافع لمخبئه .. وتزوجها فى حفل حزين كئيب.. وبعد يوم واحد انتحرا معا !

وموسولينى زعيم ايطاليا الفاشية ورفيق هتلر فى الحرب العالمية أيضا عندما تغيرت موازين الحرب ضد ايطاليا وأصبحت الهزيمة وشيكة، وتخلى عنه كثيرون امضى شهوره الأخيرة ملاصقا لصديقته كلارا بيتاشى لأنه وجد عندها التقدير والعطف والتماس الأعذار لأخطائه والتشجيع له على الاستمرار واللوم لمن « خانوه » وعزلوه قبل أن يعيده صديقه هتلر للحكم

بالقوة منذ أسابيع .. وظلا معا يتبادلان العطف والتقدير الشخصى إلى أن انتهت الحرب فى ايطاليا وكادا يهربان إلى سويسرا لولا أن ضبطتهما المقاومة الايطالية ونفذت فيهما حكم الاعدام !

ولا غرابة فى ذلك فكلنا فى حاجة للعطف ، مرة أخرى لهذا قال الشاعر الألمانى العظيم جوتة : « قلب الإنسان كبير جدا لا يملأه شىء .. وهش جدا يكسره أخف شىء » .

وقال الدكتور آرثر جيتنس أستاذ علم النفس التربوى أن الجنس البشرى كله يتلهف على العطف ! وأنه لهذا السبب النفسى يسارع الطفل بأظهار ما لحق به من أذى بل إنه قد يؤذى نفسه أحيانا لكى ينال عطف أمه وعطف الآخرين .. ويفعل شيئا شبيها بذلك الكبار حين يتحدثون عن وحدتهم ومتاعبهم وآلامهم النفسية والبدنية وامراضهم .. وافتقادهم للتقدير .. فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا إذن نعامل بعضنا البعض بهذا الجفاء وهذه الغلظة مع أننا جميعا صغار يكسر قلوبنا الهشة أخف شىء وحالنا يصعب ـ صدقنى ـ على «الكافر » !

وكلنا هذا الرجل ..
وهذه المرأة !

.... نعم كلنا نحتاج إلى عطف الآخرين واشفاقهم و إلى ربتة الحنان منهم على أكتافنا ... ولمسة التأييد على أيدينا ... خصوصا فى لحظات الضعف التى لا تخلو منها حياة كل البشر ... حتى الأنبياء منهم .

تأمل مثلا حاجة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى من يهدئ روعه حين نزل عليه الوحى لأول مرة فعاد إلى بيته مضطربا يقول « زملونى... زملونى » فلازمته السيدة خديجة بكل عطف الزوجة المحبة حتى هدأ روعه فحدثها بما رأى وأفضى إليها بمخاوفه من أن تكون بصيرته قد خدعته حين رأى الملَك الكريم الذى نزل إليه فى الغار ، فإذا بالسيدة الكريمة والزوجة العطوف لا تظهر له خوفا ولا ريبة وإنما ترنو إليه باكبار وتقول له: أبشر ... فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة... والله لا يخزيك الله أبدا ... إنك لتصل الرحم . وتصدُق الحديث وتحمل الكلَّ ، وُتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق .

فيطمئن روع محمد عليه السلام وينظر إلى شريكته نظرة شكر ومودة .

فهل كانت السيدة خديجة تعرف بما يقوله عالم النفس آرثر جيتنس من أن الجنس البشرى كله يتلهف على العطف ويطمئن به خاطره ؟ لا بالطبع لكنه قلب

الزوجة المحبة العطوف ... التى أحسنت عشرة زوجها الكريم حتى رحلت عنه راضية مرضية والتى كانت ملاك الرحمة الذى يهون عليه كل ما لاقاه من عنت وكروب ، فلا عجب بعد ذلك أن يحزن الرسول الكريم على وفاتها ويبلغ من فرط حزنه على فقدها أن سُمّى عام موتها عام الحزن ... وهل عجيب أن يحمل لها طوال حياته أجمل الذكرى حتى ليردّ عنها السيدة عائشة حين استشعرت الغيرة منها فتفوهت ببضع كلمات تفيد أنها لم يكن سوى سيدة عجوز استبدله الله بمن هى خير منها ... فيتغير وجه الرسول الكريم وينهى عائشة عن الاساءة لذكراها ويقول لها : والله ما أبدلنى خيرا منها ، فقد آمنت بى حين كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ورزقنى منها الولد دون غيرها من النساء .

وكم هى جميلة ومعبرة وموحية بكثير من المعانى ... كلمة «وواستنى» هذه ؟ وما « المواساة » إلا العطف والتأييد والبذل لشريك الحياة وهو ما يحتاجه كل إنسان فمن لم يجدها عند شريكة حياته لم تطرق السعادة ولا راحة القلب أبواب حياته .

لقد كان توفيق الحكيم مثلا واحدا من هؤلاء الذين نعموا بهذه السعادة الخاصة فى حياتهم فكانت زوجته شغوفا بحبه إلى حد أن يتندر عليها ابنها وابنتها بتدليلها لـه وتنكرها وراءه واستعدادها الدائم لأن تدعه لعالمه بغير أن تقيده بأية قيود ... ليبدع ويحلق فى سماوات الخيال وينجح وتسعد بسعادته ونجاحه وقد شجعته على أن يقبل العمل فى باريس مندوبا لمصر فى اليونسكو عام ١٩٥٩ وعلى أن يسافر وحيدا للاقامة هناك، لمجرد أنه أبدى حنينه لأن يستعيد ذكريات دراسته فى باريس فى الثلاثينيات وأن يجدد نفسه وفكره بالاقامة فى باريس لفترة أخرى فشجعته على السفر ثم راحت تطارده برسائل الحب والشوق والندم على أنها قد قبلت افتراقه عنها وتختم كل رسالة بأنها رغم ذلك سعيدة بسعادته ... وقد نشر الأديب الكبير احدى رسائلها فى كتاب «الوقت الضائع » الذى صدر بعد رحيله .

ولولا ذلك لما كان لفنان شارد كتوفيق الحكيم أن يهنأ بالاستقرار العائلى العاطفى فى حياته ولبحث عن الفهم والعطف والحنان لدى أخرى كما فعل أديب فرنسا العظيم فيكتور هوجو. فقد وصف مؤرخو الأدب حب زوجته « أديل » له بأنه كان كشمس الأصيل فاترة لا تبعث الدفء فى الشتاء وأن لم تسلمك لبرد المساء ، فبحث عن الدفء والحرارة والفهم والتعاطف عند صديقته جولييت التى ظل هوجو طفلها المدلل الذى يبكى على صدرها فى لحظات ضعفه إلى آخر يوم فى حياته .

أما الفيلسوف الفرنسى مونتسكيو فقد تزوج من ابنة جنرال قديم كان جارا له فى الريف ، ولم تكن جميلة ولاغنية ومع ذلك فقد سعد معها لأنها وفرت له كل أسباب الراحة والنجاح برجاحة عقلها وبنبع الحنان الذى يتدفق منها عليه فكان المفكر الكبير يغادر مدينته بوردو إلى باريس ويترك لها توكيلا بادارة أملاكه فتديرها بحكمة ولا تشغله بشئونها ولا تتدخل فى أعماله العلمية ولا يجد عندها فى كل الأوقات سوى اليد التى تربت على ظهره كلما تجمعت السحب الكثيفة داخله .

فهؤلاء كلهم كانوا عظاما وكبارا فى ميادينهم ... لكنهم فى حاجتهم لمن يواسيهم ويخفف عنهم ويشد أزرهم كانوا بشرا ككل البشر ولاشك أن الشاعر العربى الذى قال :

وبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إلى من قصر منيف

كان شاعرا حكيما وذا فهم سليم لمعنى السعادة الحقيقية ، لأننا نسعد بالبشر لا بالمكان فإن شقينا أحيانا بالمكان إذا كان كريها أو سجنا بغيضا فإننا لا نسعد به وحده أبدا إذا لم يكن بيتا تخفق الأرواح فيه بالحب والعطف كما قال الشاعر .وهذا أيضا ما عناه الأديب الروسى العظيم تورجنيف الذى نال من المجد والشهرة والمال ما لم ينله أديب روسى قبله حين قال : أنى على استعداد لأن أضحى بكل ما نلت من مجد وشهرة مقابل

أن أجد امـرأة يساورهـا القلق علىّ إذا تأخـرت فى العودة للبيـت عن مـوعد العشاء!

واحتياج المرأة إلى التدليل من شريك حياتها وإلى الإحساس بعطفه عليها واعتزازه بها وتـزايد حـاجتها النفسيـة لذلـك كلما تقدم بها العمـر حقيقة مألوفـه ولا تستوقف أحدا لأنها تتوافـق مع طبيعتها وميولها الـرومانسية وضعفها الأنثوى ... لكن ما هو غير مألوف عند البعض هو أن يتصور مدى حاجة الرجل أيضا إلى هذا التدليـل والعطف فى كل مراحل حياته ، وكيف أن هذه الحاجة تتزايد مع تقدمه فى العمر كـأنما يعود طفلا من جديد . والذين أدركوا سر هذا الاحتيـاج المشترك بين الرجل والمرأة هم أسعـد الأزواج وهم هؤلاء الذين نراهم فى شيخوختهم أصحاء ، راضين عن أنفسهم وعن حياتهم ونفوسهـم خالية من المرارة ومـن آلام الوحدة الداخليـة والاغتراب النفسى والاحساس بضيـاع العمر بغير أن تتاح لهم فـرصة الاستمتـاع بحياتهم أو ببعضها . ولأن كل ذلك من النعيـم ... فلقد وعد الله المتقين بنعيم أكبر منه فى العالم الآخر فوصفهم بقوله «وعنـدهم قاصرات الطرف أتراب » آية ٥٢ من سـورة ص ، لأن قاصرات الطـرف هـن مـن قصرن أطرافهـن أى عيـونهن وقلوبهن واسماعهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ولا يريد الرجال غيرهن ولا شـك أن كلا منهـم للآخـر سـلام النفس وسلـوى الحياة وجـائزتها فى الدنيا... ونعيمها وسعادتها فى الآخرة.

وما أكثر الأغانـى العاطفية الجميلة والأشعار الرقيقـة التى تصور بلغة شاعرية أخـاذة حاجة الإنسان للحب واشتهاءه للحنان ... لكـن تأمل معى هذه العبـارة الفريـدة التى سمعتهـا فى احدى الأغـانى القـديمة ومـازالت تأسرنى بقدرتها على أن تعبر عن كل ذلك بعبـارة شديدة البساطة والعفوية حين تقول الفتاة لحبيبها وشريكها :

تركت أهلى وملت لك

... والنبى» تعطف» ع الغريب !

لم تقل المحبوبة التى تركت أهلها بحكم سنة الحياة وانتقلت إلى عش حبيبها أنها تنتظر منه مكافأة لها على اختيارها له وانتسابها إليه ومفارقتها لأهلها من أجله ان يعطيها مجوهرات الملكة أو قصر الأميرة... لكنها تنتظر منه وتطالبه بشيء أهم من كل ذلك لكى يخفف عنها غربتها.. هو « عطفه» وحنانه وحبه !

ومرة أخرى كلنا هذا الرجل... وهذه المرأة... وهذا الإنسان الضعيف... الخائف ... البائس ... الغريب فى دنيا غريبة ... المتلهف على أن يضع رأسه على صدر غيره .

وأن يستمد الأمان والطمأنينة والسلام ممن يحب تماما كما يستشعر الطفل الأمان والإشباع فى صدر أمه ... وفى حضنها ، فإذا كنا كلنا نعرف هذه الحقيقة ... ولا نخجل منها ... فماذا تنتظر إذن ياأية امرأة ويا أى رجل لكى :

« ... والنبى تعطف على الغريب ! »

مكان على الأرض أو ..

فوق الحذاء !

ماذا تفعلين إذا كنت تسيرين فى الطريق وحدك ثم فوجئت بشاب وسيم لا تعرفينه يتقدم منك بهدوء ويحييك برقة .. ثم يقول لك :

ـ هل تسمحين لى بتقبيل حذائك ؟

فإذا عقدت الدهشة لسانك وتمتمت بأية همهمة غير مفهومة فاعتبرها هو « موافقة » .. فوجئت به ينحنى أمام المارة على حذائك ثم يطبع عليه قبلات حارة وهو فى غاية التلذذ والابتهاج ثم يعتدل قائما فى قمة السعادة..وينظر إليك بامتنان ويقول لك « بأدبه المعهود» :

ـ لا أعرف كيف أشكرك يا سيدتى يا آنستى لقد كان هذا فضلا كبيرا منك لن أنساه لك .. أكرر شكرى وأسفى لازعاجك .. إلى اللقاء ! ثم يستدير ويمضى فى طريقه فى منتهى النشاط والحيوية ويتركك فى موقفك عاجزة عن الحركة أو الفهم ! ..

إن مذيعى الاذاعة والتليفزيون لديهم سؤال مفضل يوجهونه لى دائما فى كل برنامج هو : ما هى أغرب الرسائل والمشاكل التى تعاملت معها ، ورغم كثرة الغرائب فحين أُسأل هذا السؤال تغيب عن ذاكرتى كل العجائب التى قرأتها فى رسائل القراء أو استمعت إليها منهم مباشرة وأجهد عقلى وذهنى

فى محاولة التذكر .. فلا تسعفنى إلا هذه « الحالة » حتى مللت ترديدها .. ثم شاركّتها بعد ذلك « حالة » أخرى منذ عامين فأصبحت أقدمهما « هدية » لكل مذيعة تسألنى نفس السؤال ..

أما الحالة الأولى فهى التى أشرت إليها فى البداية وكانت لشاب فى الثانية والعشرين من عمره كتب إلىّ يشكو من « ضيق أفق » بعض الفتيات والسيدات لأنه يهوى تقبيل أحذية السيدات .. ولا يستطيع أن يقاوم منظر الحذاء الجميل الصغير فى قدم فتاة أو سيدة يلتقى بها فى الطريق .. فيتقدم منها بأدب ويستأذنها فى تقبيل حذائها وهى ترتديه ، فإذا وافقت فإنه ينحنى بكل احترام ويقبل الحذاء قبلات متلاحقة بنشوة غريبة ، ثم ينهض ويشكر الفتاة أو السيدة بكل أدب وينصرف ، وإذا رفضت فإنه يحترم رغبتها ولا يُثقل عليها بالالحاح وإنما يشكرها بأدب اكبر وينصرف فى هدوء.. وما دام الأمر كذلك فلماذا إذن ـ كما قال لى فى رسالته ـ الثورة والغضب والصراخ واستدعاء الأشقاء والأزواج للاعتداء علىّ بالضرب ولماذا البهدلة واللكمات والتهديد بالشرطة ؟

ولماذا لا تتعامل السيدات والآنسات مع هذا الطلب المُهذب «بروح رياضية » وبلا شوشرة .. فاما قبول بكل الاحترام .. واما رفض بهدوء ؟ وإلى أن يتحلَّين بهذه الروح المفقودة .. أرجوك أن تكتب وأن تناشد الفتيات والسيدات ألا يبالغن فى ارتداء الحذاء الرشيق الجميل رحمة بى !

هكذا اختتم الشاب رسالته ، واذكر أنى لم أستطع رغم ادراكى لخطورة الأمر أن أمنع نفسى من الضحك عقب قراءة الرسالة .. وشر البلية ما يضحك ويبكى ، ثم نشرت رسالته ناصحا له أن يعرض نفسه على طبيب نفسى لمساعدته على التخلص من هذا الانحراف النفسى لكى يتجنب المتاعب قبل أن تتطور هوايته الغريبة هذه وتعرضه لعدوان « الأزواج والأشقاء » فضلا عن عقاب الشرطة.. إذ إنه لا أمل فى أن يتحلى أحد «بالروح

الرياضية » المزعومة إزاء هواية كهذه وفى عرض الطريق ، وحثثته باخلاص على الا يخجل من طلب المساعدة من الطبيب النفسى وعلى البحث فى طفولته عن جذور وهذه الهواية الغريبة ..

فهى انحراف نفسى مؤكد ويضاعف من خطره .. أنه من نوع الانحرافات النفسية ذات التعبير الاجتماعى التى يمكن تسميتها أيضا الانحرافات المعادية للمجتمع ، وهى أفعال يستهجنها المجتمع ولا يستطيع صاحبها أن يتخفى بها عند ممارستها ، وانحراف هذا الشاب ينتمى إلى « الفتيشية » أو « الفتيشيزم » وفيه يتم تحويل الصفة الجنسية إلى جزء معين من أجزاء الجسم البشرى أو إلى شىء لا يثير لدى الأسوياء أية اثارة أو رغبة لكنه تصبح له عند المريض دلالة جنسية خاصة وقد تولد هذا التحويل فى مرحلة الطفولة من خلال حادثة فردية قديمة تلازمت فيها الاثارة الشديدة مع رؤية الطفل لجزء من الجسم أو رؤية شىء آخر من المتعلقات الانثوية فيثبت هذا الشىء فى ذهنه ويصبح رمزا عنده للإثارة .. وأكثر الأشياء ارتباطا بالفتيشية هى الملابس النسائية الداخلية ، وقد تشمل أيضا الشعر أو الجوارب أو الأقراط وأشياء أخرى عجيبة .. وفى حالة هذا الشاب بالذات.. فهو الحذاء النسائى ليس لأنه «صغير وجميل » كما يتوهم هو وإنما لأنه رمز للقدم والساق ..

ولا أعرف ماذا صنعت الأيام بهذا الشاب وهل استجاب لنصيحتى والتمس العلاج من هوايته المحفوفة بالمخاطر هذه أم لا ؟ لكنى أذكر بعد أن نشرت رسالته أنه قد اتصل بى بعض القراء ورووا لى فى التليفون أنهم « عانوا » من قبل نفس هذا « الانحراف النفسى » ثم وجدوا شفاءهم منه فى الزواج .. حيث افرغوا هوايتهم فى تقبيل أقدام زوجاتهم طوال الأعوام الأولى من الزواج ، ثم شفوا منها والحمد لله ، فبدأت الزوجات فى تقبيل أقدامهم لكى يعودوا إلى ممارسة الهواية القديمة ! وطالبونى بأن أنصح هذا الشاب

إذا اتصل بى مرة أخرى بأن يُسرع بالزواج مع استشارة الطبيب النفسى .. لكن الشاب لم يتصل بى ولم يكتب إلى مرة أخرى ، وشُغلت عنه بهموم الحياة إلى أن ذكرتنى به بعدها بأعوام « الحالة الثانية » التى تعرفت عليها من رسالة زوجة شابة .. فقد كتبتْ إلىّ تقول أنها متزوجة من شاب يكبرها بـ ٤ سنوات وأنجبت منه ولدين أكبرهما عمره ١٠سنوات والأصغر ٨ سنوات ، وأنها سعيدة معه وبأسرتها الصغيرة .. لكنها تتمنى شيئا بسيطا هو أن يتخلص من هوايته الغريبة التى يمارسها معها كل يوم فهل تعرف ما هى هذه الهواية ؟ أن يحملها على صدره كما تحمل الأم طفلها الرضيع ويتجول بها فى الشقة لفترة لا تقل عن ساعتين وأحيانا ثلاث ينقلها خلالها من ناحية إلى أخرى كلما تعبت ذراعه من حملها ..

ثم قالت لى فى رسالتها أنها فى البداية كانت تسعد بهذه الهواية وتعتبرها دليلا على حبه لها .. لكن فترات « الحمل والتجوال » أصبحت تطول حتى تُحس بالتعب وتنتظر بصبر موعد « الهبوط » بسلام إلى الأرض .. فيتأخر هذا الموعد طويلا وتكتم مشاعرها حتى لا تضايق زوجها ثم بدأت تُحس بالخطورة حين حدث ذات يوم أن انتهت من حمامها وارتدت ملابسها فنادت على ابنها وهى فى البانيو ليحضر لها «الشبشب » لتخرج إلى غرفة النوم فبحْث الولدان عنه فلم يجداه وطال البحث فإذا بالابن الذى يبلغ عمره ١٠ سنوات يقول : عندى حل للمشكلة! ثم يدخل إلى الحمام ويرفع أمه بذراعيه الصغيرتين ويحملها إلى غرفة النوم ويضعها على الفراش .. وهو سعيد .. وهى مذهولة ! وبعدها بأيام كانت فى المطبخ مشغولة بإعداد الطعام فإذا بابنها الأصغر يأتى من خلفها ويجلس القرفصاء ويلف ذراعيه حول ساقيها ثم ينهض رافعا أمه فوق الأرض وهى تصرخ فزعة .. وهويضحك بسعادة ! وانزعجت الأم وحدثت زوجها بأن ممارسته لهواية حملها أمام الولدين قد جرأتهما على حملها من باب تقليد الأب ، ورجته أن يتوقف عنها..

لكنه لم يتوقف وكل ما فعله هو أن بدأ يحرص على ألا يمارس هواية الحمل والتجوال فى الشقة إلا بعد نوم الأبناء ، ثم سألتنى تلك السيدة فى نهاية رسالتها سؤالا عجيبا مازلت أذكره حتى الآن رغم ما تنوء به الذاكرة هو : أليس من حقى يا سيدى أن يكون لى مكان .. على الأرض ؟

تقصد بالطبع .. وليس فى الهواء !

ولقد رددت على رسالتها ناصحا زوجها بأن يرجع إلى طفولته ليستشف منها جذور هذه الهواية .. فإذا عرف الجذور استطاع أن يتخلص من الحاح هوايته عليه بمساعدة الطبيب النفسى وخاصة وأنها تقترن « بالتجوال » وهو عرض لحالة نفسية معروفة يمكن علاجها أما الزوجة التى رجَّحت أنها ضئيلة الحجم فقد نصحتها «بالصبر » على ما سوف تحسدها عليه الزوجات الأخريات حين يقرأن عن مشكلتها فى بريد الجمعة إلى أن يستجيب زوجها للنصيحة، ولقد حدث ما توقعته بالفعل فلم التق بقارئة أو سيدة من معارفى خلال الأيام التالية لنشر هذه الرسالة إلا وسألتنى ضاحكة : ألا تعرف طبيبا نفسيا يساعد زوجى على أن «يمرض » بهذه الهواية؟

فقلت لنفسى متفكرا : « مشاكل » قوم .. عند قوم أمانى ! وحين فكرت فى جذور نفسية محتملة لهذه الهواية الغريبة رجَّحت أحد هذه الاحتمالات:أن يكون فى طفولته قد تعرض لأن تحمله أمه أو الخادمة قسـرا.. وعلى غير ارادته لفترات طويلة للذهاب إلى المدرسة فى حين كان يرى قرناءه يسيرون إليها على أقدامهم بلا خوف عليهم من أخطار الطريق .. فتولد فى أعماقه نفور من أن يحمله أحـد وتحول فيما بعد إلى رغبة مكبوتة يقوم بالتنفيس عنها فى شبابـه بحمل زوجته لفترات طويلة بغير ادراك للدوافع القديمة ..

أو أن يكون قد كلفه أبوه بحمل أخته الصغيرة فى الطريق ذات يوم فى طفولته فتكاسل عن ذلك وتعرضت أخته لبعض المخاطر من جراء ذلك ، فاحس بالخوف والندم لأنه لم يحملها ولم يحمها فأصبح بعد أن كبر

وتزوج يحس بالأمان حين يحمل زوجته .. وكأنما يدفع بذلك عنها خطرا غير معلوم .. ويدفع عن نفسه الإحساس بالخوف عليها أو بالندم إذا تقاعس عن حمايتها ..

أو أن يكون قد شاهد فى طفولته أباه يحمل أمه ويداعبها فارتبط حمل المرأة فى ذهنه بالارضاء والاشباع أو بالرجولة والاحتواء .. وهذه كلها اجتهادات هاو للقراءة فى علم النفس لا أجزم بصحتها وأترك للمتخصصين الكلمة النهائية فيها .. وإن كان هذا التعبير الأخير لاوجود له فى علم النفس ولا فى أى علم من العلوم .. فليست هناك كلمة نهائية .. وإنما هناك فقط آخر ما وصل إليه هذا العلم أو ذاك حتى الآن لأن كل يوم تشرق فيه الشمس يحمل الجديد ويغير مفاهيم ظلت راسخة سنوات طويلة ..

وإذا صح ذلك فى كل العلوم .. فهو أكثر صحة فى علم النفس الذى رغم كل ما حققه من تقدم لم يحط بعد بكل أسرار النفس البشرية وغوامضها.. وما أحسبه سوف يحيط بها كلها ذات يوم قريب .. فعالمها الغامض الواسع لا يدركه إلا بارئها الذى خلقها فسواها .. وما أعجب ما يتكشف كل يوم من اسرارها!..

افتـــح قلبـك !

فجأة وجدتنى جالسا أمام كاميرات التليفزيون والمذيعة الشابة تجلس أمامى والمخرج يقف بجوار الكاميرا وكشافات الأضواء تزيد من حرارة الجو وتنثر العرق فى وجهى .. و ٢٤ عينا تنظر إلىّ كأنى قاض سوف يصدر أحكامه فى أخطر القضايا وصاح المخرج : « سكوت » بسم الله الرحمن الرحيم بنسجل ! ثم تفضل يا أستاذ .. تكلم عن الحب !

فقلت للمذيعة الشابة كيف أتكلم عن الحب وحولى هذا الجيش من العمال والفنيين ! ولم أجد لديها جواباً .. ولا حلا فاستسلمت لمصيرى وأبديت استعدادى للإجابة على أسئلتها عن الحب فى هذا الجو البعيد تماما عن الرومانسية !

* سألتنى : الحب قدَر أم اختيار ؟

- فجففت عرقى وقلت : الحب قدر وليس عملا إراديا لأن الإنسان لا يقول نويت الوقوع فى الحب .. ثم يقع فى غرام إنسانة .. وإنما يتسلل إليه الحب بغير إرادة .. وأحيانا بغير وعى إلى أن يتمكن منه ويعترف لنفسه به.. والاختلاف الوحيد هو أنه قد ينمو ببطء وينضج على نار هادئة لدى البعض وقد يلتهب بسرعة لدى البعض الآخر .. والحب الهادئ الذى ينمو على مهل أجمل مذاقا وأطول عمراً من الحب الصاعق الذى قد يكون غالبا سريع الالتهاب وسريع الخمود !

* قالت : وكيف يعرف الإنسان أنه قد أحبّ أو قد وقع فى الحب ؟

- قلت واحساسى بالعيون التى تحاصرنى يزداد : أسهل الأشياء تعريفاً بها - هى أصعبها دائما ، والدليل هو أنى أتلقى هذا السؤال كل يوم تقريبا فى رسائل القارئات .. وفى التليفون وأجيب عليه بكلمات شبه متكررة.

فأقول إن تعريفات الحب كثيرة لكنى أميل لتعريف « ستاندال » له فى كتابه عن الحب حين قال : الحب هو الاستمتاع برؤية شخص ويُعجبنا ويحبنا - والاستمتاع بلمسه وادراكه بكل الحواس وبأقرب الطرق الممكنة .

وبعيدا عن الكتب فإنى شخصيا أفضل التعريف البسيط التالى : الحب هو أن نسعد بقرب إنسان ما إذا اقترب وأن نفتقده إذا غاب عنا! وانصح دائما من تسألنى بامتحان مشاعرها تجاه خطيبها بهذا الاختبار البسيط .

* سألتنى : أيهما أنجح زواج الحب أم زواج العقل ؟

- فأجبت وأنا أرمق المخرج الذى يشير إلى بأن أنظر إلى الكاميرا وليس إلى وجه المذيعة : زواج الحب الذى لا يخاصم العقل هو أنجح أنواع الزواج وأفضلها دائما !

فأحكام القلب قد ينقضها العقل بعد حين إذا تنافرت تنافراً شديداً معه ثم هدأت المشاعر وأطل العقل من عليائه يراجع الأحكام ويبين أوجه الفساد فيها .. وقد لا تصمد طويلا أمام مراجعة العقل فيتخلى عنها القلب. وزواج العقل قد ينجح لكنه قد لا يعرف السعادة اللاذعة التى يعرفها زواج الحب ولو كان عمره أقصر. وأفضل السبل لتجنب اعتراضات العقل هى أن يكون مستوى المتحابين متقاربا من الناحية الثقافية والاجتماعية ومن ناحية السن .. أما التقارب أو التكافؤ المادى بين الطرفين فليس شرطا أساسيا لأن الأهم دائما هو التقارب فى المستوى الثقافى والمستوى الأسرى والاجتماعى .

* وعادت تسألنى : من الأقدر على اختيار شريك الحياة المثالى الذى يختار بقلبه وعواطفه أم الذى يختار بعقله فقط ؟

ـ فضحكت لأنى تذكرت أن الفيلسوف الألمانى نيتشه كان يقول اننا يجب ألا نسمح لمن وقع فى حبائل الحب بأن يتخذ قرار اختيار شريكة حياته لأنه فى رأيه غير واع بما يفعل وغير قادر على اتخاذ القرار السليم بشأن من يحب أن يتزوجها أو تتزوجه وبسبب هذا الاعتقاد الغريب أطلق صيحته الغريبة قائلا إننا يجب ألا نسمح بزواج المحبين !

ولخصت لها رأى نيتشه الذى كان يؤمن بأن الزواج والانجاب مجرد عملية بيولوجية واجتماعية هدفها خلق شعوب قوية متفوقة وليس اسعاد البشر كما أرادها الله خالق القلوب والعقول ، وعارضت الرأى قائلا أنى أفضل أن يختار الإنسان بقلبه بعد استشارة عقله ولا مانع بالنسبة للبعض من أن يختاروا بعقولهم ولكن بعد استشارة قلوبهم أيضا وبموافقتها الضمنية ويكفى فى هذا الشأن ألا يعترض القلب أو ألا ينفر من الاختيار حتى ولو لم يحمل حبا فى البداية لمن اختاره ـ فهذا القبول النفسى قد يمهد الطريق لاشتعال شرارة الحب ذات يوم قريب .ونفدت علبة المناديل الورقية ولم تنفد بعد أسئلة المذيعة الشابة فاستأذنت المخرج النشيط فى هدنة لاحضار مناديل جديدة .. واستأنفنا « الكفاح » !

* الجمال هل هو المسئول عن الحب ؟

ـ فقلت : جمال المرأة أو وسامة الرجل ليسا العامل الأساسى فى الحب واستمراره .. وإنما هما بطاقة التعارف التى قد تقدم كلا منهما للآخر وتجذب أنظاره إليه .. أما الحب فهو كما قالت سيمون دى بوفوار فى كتابها الجنس الآخر .. « تجربة حية فريدة لا يعرف أسرارها إلا من يعيشها » وهذا صحيح تماما لأنه يرتبط بالشخصية التى تحمل بطاقة التعارف .. وبالروح التى تكمن فيها .. وجمال الوجه قد يخفى خلفه روحاً منفرة لا يمكن الوقوع فى حبها فإذا انخدعنا بها فى البداية فما أسرع ما نفر منها حين نكتشف بشاعتها أو سوء عشرتها وفى مسرحية «تشيترا» للشاعر الفيلسوف

طاغور أحبت فتاة أميرا نبيلا محاربا لكنه شغل عنها بمجده وانتصاراته الحربية فتضرعت للآلهة لتساعدها على الفوز بحبه .. فأعارتها الآلهة لفترة مؤقتة جمالا ساحرا يخلب الأبصار ورآها الأمير فوقع فى غرامها وسعدت الفتاة بحبيبها لكن مهلة الجمال المستعار التى حددتها الآلهة اقتربت من نهايتها فازداد هلعها من أن تفقد حبيبها بعد أن تسترد الآلهة هبتها المؤقتة.. وجاء الموعد المحدد وصحت الفتاة من نومها ونظرت فى المرآة فرأت وجهها القديم العاطل عن الجمال وتأكدت من نهاية الحلم الجميل .. ولكن الأمير النبيل لم ينصرف عنها بعد اختفاء جمالها لسبب بسيط هو أنه كان وقع فى غرامها .. وأسرته روحها الجميلة الطيبة فظل مقيما على حبها إلى النهاية وهكذا الحال فى الحياة أيضا لأن الجمال الحقيقى هو جمال الروح والشخصية وليس جمال الوجه والجسد !

* وسألتنى : هناك كتب عديدة تتحدث عن آداب العلاقة الخاصة بين الزوجين فما أفضل ما قرأت فيها ؟

ـ وقلت : قرأت منها الكثير .. وهى تجارة رائجة لها خبراؤها وعلماؤها وكتابها المتخصصون فى الغرب وخاصة فى الولايات المتحدة ، لكن لم اقرأ أجمل مما قرأت فى الذكر الحكيم من قوله سبحانه وتعالى فى الآية ٢٢٣ من سورة البقرة :

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنَّى شئتم وقدِّموا لأنفسكم واتقوا الله﴾ إذ كلما قرأتها توقفت مذهولا أمام: « وقدموا لأنفسكم» التى يُقصد بها الاعداد البدنى والنفسى للزوجة لكى تتجاوب مع زوجها فلا تكون العلاقة كرهاً ولا غصباً ولا مجرد أداء لواجب ثقيل. ولا قرأت أجمل مما قرأت فى الحديث الشريف الذى يقول ما معناه : لا ترتموا على نسائكم كالبهائم واجعلوا بينكم وبينهن رسولا قيل وما الرسول قال ما معناه : الملاطفة والكلمة الطيبة !

فأى آداب للعلاقة الخاصة أرق .. وأجمل من هذه الآداب ؟

* قالت : هل يتآكل الحب مع الزمن ؟

ـ فقلت : الحب الحقيقى لا يتآكل ولا ينقص بل ينمو ويتعملق مع الزمن وربما تختلف طرق التعبير عنه من مرحلة إلى أخرى من العمر لكن الحب كائن حى يحتاج كالأزهار النادرة إلى رعاية مستمرة وخدمة متواصلة لكيلا تذبل أوراقه .. ولا يكفى الاعتماد فيه على قوة البداية لكى نضمن استمراره للنهاية .. فإذا توفرت له هذه الرعاية صدق فيه قول شكسبير على لسان روميو لفتاته جولييت :

إن كرمى كالبحر لا حدّ له

وحبى لك فى عمقه

كلما وهبتك منه زاد ما عندى

فلا حدَّ للبحر .. ولا حدَّ لحبى !

وتململت فى مقعدى بعد أن ظللت حوالى ساعة أتحدث تحت وطأة العيون وحرارة كشافات الضوء القوية فطمأنتنى المذيعة إلى أنها ستوجه إلى سؤالها الأخير .. وقالت :

* ما هى أجمل كلمة حب قالها زوج عن زوجته ؟

ـ قلت : كلمة مارك توين عن زوجته فى كتابه يوميات حواء :

أينما حلَّت كانت هناك جنَّة ! فلم تتمالك المذيعة الشابة نفسها وقالت بانفعال : الله .. هذا أجمل ما يقوله زوج مخلص عن زوجته فعلاً لكن من مارك توين هذا ؟ فأجبتها : كاتب أمريكى ساخر كما أنه أيضا أكبر كذاب!

وصاح المخرج : ستوب ! وطلب اعادة التسجيل مع حذف العبارة الأخيرة .. فرفضت بعناد وتركت له الخيار فى أن يحذفها فى المونتاج إذا أراد.. أما أنا فانى متمسك بأنه كذاب !.. وكذاب جدا كذلك .

وانطفأت الأضواء فى مكتبى وتنفست الصعداء أخيراً .

نصـــف الحـــياة !

هى قارئة كتبت إلى تعاتبنى أن لمت فتاة جامعية شابة تزوجت من أستاذها الذى يكبرها بخمسة وعشرين عاما ومتزوج وأب لأبناء كبار وقدمت له تضحيات كثيرة أهمها أنها رضيت بأن تعيش معه فى الظل فإذا بزوجها يزهدها بعد قليل ويبعث إليها بورقة الطلاق مع بواب العمارة ، وكان أكثر ما استوقفها فى لومى لهذه الفتاة هو أنى آخذتها على قبولها أن تكون نصف زوجة أو زوجة سرية بلا مبرر مقبول فى حين كانت تستطيع إذا توجهت بمشاعرها إلى وجهتها الطبيعية أن تكون زوجة كاملة فى العلن لزميل لها يقاربها فى السن أو يكبرها بقليل ولا تشغله عنها زوجة أخرى وأبناء يشدونه بعيدا عنها بعد أن تهدأ جذوة الحب العارض .

فكتبت إلى تلك القارئة معلقة على ذلك ومتسائلة : وماذا يفعل الرجل إذا نُكب بزوجة جعلت من حياته جحيما وله منها أبناء يخشى عليهم من الضياع إذا طلقها ثم حدث أن التقى بمن أحبها وأحبته وصدقت كل ما رواه عن حياته الخاصة فقبلت أن تتزوجه لأنها هى الأخرى وحيدة وتحتاج إلى رفيق يؤنس سنوات عمرها ؟

وبعد هذه المقدمة بدأت تروى لى قصتها فقالت : أنا سيدة فى منتصف العمر رحل عنى زوجى منذ ١٤ سنة فتفرغت لتربية أبنائى منه حتى أنهوا جميعا تعليمهم العالى وعملوا وتزوجوا واستقلوا بحياتهم وهاجر بعضهم

إلى الخارج . ووجدت نفسى وأنا اقترب من الخامسة والأربعين أرملة وحيدة تماما بلا رفيق سفر فى رحلة الحياة وقد بدأت تتناوبنى الأمراض حتى دخلت المستشفى عدة مرات ، وفى كل مرة لا يجد بى الأطباء داء محددا وإنما يجدون أعراضا نفسية جسمية من تأثير الوحدة القاسية والفراغ العاطفى الطويل وبعد أن غادرت المستشفى فى المرة الأخيرة ذهبت ذات صباح إلى النادى وجلست بين مجموعة من الصديقات فجاء أحد الأعضاء وتحدث قليلا مع صديقة لى وقدمتنى له وتعارفنا وجلس معنا عدة دقائق ليشرب فنجانا من القهوة وتشاغلت الصديقات بعض الوقت فى الحديث .. ففوجئت به يقول لى باهتمام شديد أنه كان ينتظر هذه الفرصة للتعرف على منذ سبع سنوات لكن الجراة لم تواته ليبدأ بالاقتراب منى .. وقد أسعده كثيرا أن يعرف أنى قد شفيت من آلامى التى دخلت بسببها المستشفى وتأثرت بمجاملته ووجدت نفسى اهتم بأن أعرف عنه كل شيء وسألت صديقاتى عنه فعرفت أنه قد عبر لهن أكثر من مرة عن تقديره لكفاحى مع أبنائى واحترامى لنفسى فى النادى وعرفت منهن أيضا أنه يعيش حياة تعيسة مع زوجة ريفية عنيدة لا تقدره ولا تفهمه وترفض أن تغير من نفسها لتجاريه فيما وصل إليه من مكانة علمية واجتماعية مرموقة حتى أنه يضطر لحضور المؤتمرات الدولية وحيدا لأن زوجته لا يشغلها إلا أبناؤها والتنكيل به والغيرة العمياء من كل شيء يخصه حتى من كتبه ومجلاته التى قد ينصرف إليها بعض الوقت فتمزقها له فى عصبية .

وتكرر اللقاء بيننا وسط شلة الصديقات فى النادى وفاتحنى برغبته فى الزواج منى ، ووجدت نفسى أرحب بالفكرة لكننى ترددت فى اعلان قبولى لها قبل استشارة ابنائى وهم ابنتان متزوجتان وابن مهاجر إلى كندا واستمهلته بعض الوقت وبدأت بابنتى الكبرى فأيدتنى بحماس وبكت وهى ترجو لى السعادة بعد كل ما عانيته من حرمان ووحدة واستشرت ابنتى

الصغرى فقبلتنى سعيدة ومهنئة بهذه الخطوة السعيدة ثم بقى الحرج الأكبر مع ابنى الشاب وترددت كيف أفاتحه فى الموضوع حين يتصل فى مكالمته الأسبوعية لكن ابنتى الكبرى رفعت عنى هذا الحرج وفاتحت شقيقها بالأمر فجاءنى صوته عبر الأثير يطالبنى بألا أتردد فى القبول ويؤكد لى أنه سيسعد بذلك ويذكرنى بأننى لم اعترض طريق هجرته وهو ابنها الوحيد .. فكيف له أن يعترض طريق سعادتى ؟ وهدأت خواطرى من هذه الناحية فأعلنت موافقتى وتزوجت زميل النادى سرا وعشنا معا أسعد أيام العمر وقضينا الليالى نقرأويترجم لى ما أعجز عن فهمه ونتناقش فى كل شئون الدنيا وتمضى الساعات لا نحس مرورها ونحن فى حديث طويل لا ينقطع.

وسافرنا معا إلى الخارج وطفنا بلاد العالم فى حب وسعادة يحسدنا عليهما الشباب واستمتعنا بإحساس الألفة والأمان الذى بثه كل منا فى نفس الآخر ، وتفانيت فى حبه وخدمته وإسعاده ، وتفانى هو فى حبى والالتصاق بى حتى كان يبكى كالأطفال إذا اتصل بى يوما بالمسكن فلم يجدنى فيه ومن حين لآخر يسألنى كأنما يسأل نفسه : لماذا لم أتجرأ على محادثتك طوال السنين السبع الماضية .. ولماذا حرمت نفسى من هذه السعادة فلا أجد ما أجيبه به إلا بأننا قد التقينا حين شاءت إرادة الله .. ولم نكن لنلتقى قبلها.

ومضى عامان من عمر السعادة كأنهما يومان ثم تسرب خبر زواجنا الذى حاولنا تكتمه بكل الطرق إلى أسرته فانقلبت حياتنا فجأة إلى جحيم وانتهت أيام الهدوء إلى غير رجعة وراح تليفونى لا يتوقف عن الرنين حاملا إلىّ سباب زوجته وأبنائه وبأفحش الكلمات والتهديدات وكانت علاقتى بأهله طيبة ومثالية فوقفوا معه إلى جانبى وأيدوه فى التمسك بى وعدم طلاقى .. وعانى زوجى مع زوجته وأهلها وأبنائه الويلات لكى يجبروه على

أن يطلقنى فأبى ذلك عليهم وراحوا يمنعونه من زيارتى بكل الطرق والوسائل فإذا تهرب منهم وجاء لزيارتى لاحقونى بالاتصالات التليفونية وهو معى وكالوا لى السباب والفحش ثم حضروا بعد قليل إلى مسكنى لاحراجه واحراجى معه أمام الجيران ، ولم تستطع صحة زوجى أن تحتمل كل هذه الضغوط فأصيب بارتفاع ضغط الدم وأصبح يخشى زوجته وأبناءه ويرتعب منهم كما يفزع الطفل الصغير المخطئ عند رؤية أبويه .

ومارسوا عليه اقسى الضغوط لكى يطلقنى وفى سبيل هذا الهدف المقدس لم تتورع زوجته عن شىء وتمادت فى ذلك إلى حد تحريضها لابنيه الطالبين بالجامعة على الرسوب واخفاء كتبهما ليلة الامتحان لكى تشعره بالذنب تجاه أبنائه فرسبا عمدا لتحرج مركزه أمام أسرتها وتتهمه بأنه قد أضاع مستقبل ولديه باستهتاره ! وأشفقت عليه من كل هذا العذاب وتوسلت إليه أن يطلقنى ليرحم نفسه من تلك الضغوط وحتى لا تسوء حالته الصحية أكثر فازداد تمسكا بى وقال لى متألما وبإصرار :

لن أكافئ من لم أذق طعم السعادة إلا معها بالغدر والجحود. وبين نيران الجحيم التى أطلقتها عليه وعلىّ زوجته كان يستروح أحيانا بعض الراحة فيستسلم لأحلامه السعيدة ويقول لى : ستهدأ العاصفة ذات يوم قريب وسأؤدى واجبى للنهاية مع أبنائى وسأؤمن حياتهم ومستقبلهم وسأؤمن أيضا مستقبل زوجتى سامحها الله ثم بعد ذلك أرحل معك إلى مكان بعيد لا يستطيعون مضايقتنا فيه وأنا مستريح الضمير وأعيش بقربك ما بقى لى من عمر .. ويكفينى من زوجتى ما قاسيته منها طوال ثلاثين سنة ، أما أبنائى فسيكبرون يوما ما ويعرفون أنى كنت الضحية ولم أكن ظالما وسيلتمسون لى العذر ويعرفون أنى لم أطلب من الحياة الكثير .

ثم تنساب دموعه فأجد نفســى أبكى لبكائه ولأحلامه الصغيرة وأدعو

ربى له بالسعـادة ولأبنائه وزوجته بالهدايـة وبأن يعرفـوا له قدره وأن يكفوا أذاهم عنه .

لكن الأحلام الصغيرة قد تستعصى أحيانا على التحقيق فبعد أسابيع قليلة إزداد ضغط زوجته وأهلها وأبنائه عليه بلا رحمة وبلا أدنى تقدير لظروفه الصحية فأصيب زوجى بنزيف فى المخ ثم شلل لم يمهله أكثر من أسبوعين وصعدت روحه المعذبة إلى بارئها وهو يردد اسمى ويطلب من أبنائه أن يعذروه ويوصيهم رغم ذلك بأمهم .

وذهب زوجى الحبيب وذهبت معه الأيام السعيدة القليلة التى عشتها معه ومازلت أعيش على ذكرياتها حتى الآن ، ولم يبق لى منها سوى لون الحداد الأسود الذى ارتديه منذ رحيله ولن أخلعه إلى أن ألقى ربى أما زوجته فقد خلعت لون الحداد عليه بعد بضعة شهور ومازالت هى وأبناؤها يلاحقوننى بالاتصالات التليفونية والحقد يملأ قلوبهم ضدى لا لشيء إلا لأنه رفض أن يطلقنى حتى آخر يوم من عمره . لقد تنازلت لهم عن حقى المشروع فى ميراثه ورفضت أن أقاسمهم فيه ترفعا عن أن يكون لاعتزازى بذكراه أى سبب مادى وأملا فى أن يفهموا ذات يوم أن فى الحياة أشياء ثمينة كثيرة لا تقدر بمال. لقد كنت نصف زوجة كما وصفتَ تلك القارئة ونعيت عليها قبولها بذلك ، لكنى كنت سعيدة بهذا النصف وراضية به ولست نادمة عليه أبدا ومازلت أحيا وأعيش على ما أمدنى به من وقود الحب والسعادة حتى الآن .

وانتهت قصة نصف الزوجة السابقة عند هذا الحد .. ووجدتنى اتأملها طويلاً ثم أقول لنفسى أن لكل إنسان أن يبحث عن سعادته بالطرق المشروعة ما لم يترتب على سعيه لها إضرار بالآخرين أو عدوان مقصود على سعادتهم ومن حق كل إنسان بعد ذلك أن يرضى عن حياته إذا هى أرضته حتى ولو لم يرض بها لنفسه غيره .

لكن ظروف تلك الأرملة التى رضيت بأن تكون نصف زوجة وسعدت

بتجربتها رغم المعاناة تختلف كثيرا عن ظروف تلك الفتاة الجامعية التى انساقت وراء أهوائها فلم تسعد بتجربتها وأنهارت أحلامها سريعا على صخرة الواقع المرير وهو عودة الزوج المشدود بوثاق متين لأسرته وأبنائه إلى عالمه الأول مخلّفا وراءه قلبا كسيراً تماما كما يخلّف القائد الوغد المنسحب الجرحى وراءه فى أرض المعركة بغير أن يهتم إلا بسلامته الشخصية أو يحاسب نفسه على استدراجه لهم إلى تلك المعركة الخاسرة .

إنها قصة أخرى لا تنطبق عليها ظروف تلك الأرملة التى جمعت بينها وبين زوجها الثانى ظروف مشتركة من الوحدة الداخلية عند الزوج .. والوحدة الكاملة عند الزوجة فكلاهما قاده إلى الآخر ذلك التطلع الحزين للسعادة والأمان بعد رحلة طويلة من المعاناة . فاختلسا من الزمن عامين من السعادة الحقيقية .. وتمسك كل منهما بالآخر فى وجه الأعاصير العاتية .

أما الفتاة الجامعية صغيرة السن التى تزوجت من أستاذ فى سن أبيها بدلا من أن تتوجه بمشاعرها لشاب مقارب لها فى العمر لتصبح هى كل دنياه فلقد تحطمت تجربتها بإرادة الزوج المنسحب نفسه بعد أن أفاق من نزوته ولم تخلف وراءها إلا الخسائر لسبب هام هو أن محكمة الحياة قد أدانتها بتهمة لا يمكن غالبا تحمل تبعاتها هى : خرق المألوف والخروج على قوانين الحياة .

والحسرة والندم والفشل واجترار الأحزان على البراءة المفقودة هى دائما ثمن الاجتراء على المثل العليا السائدة فى مجتمع من مجتمعات البشر .

وحتى لو نجحت بعض تلك التجارب وأثمرت السعادة والبقاء فإن نجاحها النادر لا يمكن أن يكون إلا استثناءً من القاعدة والاستثناء يبقى دائماً استثناءً لا يصلح للتعميم أو الاحتجاج به ، كما أن أفضل ما نتعامل به معه ومع أشباهه من أمثلة الخروج على قوانين الحياة إذا نجحت هو هذا المبدأ الفقهى المعروف :

يبقى الشاذ من الفُتْيا كما هو .. ولا يُقاس عليه !

عـــين الحلفـــاة !

** جالسا على مقعده المفضل فى شرفة مسكنه كعادته كل أصيل، ثبَّت عينيه على السلحفاة الصغيرة التى تتحرك ببطء أو تتوقف جامدة فى مكانها بين أصص الزرع فى ركن الشرفة واستسلم للهواية التى استولت عليه فى الفترة الأخيرة .. وهى أن يحدِّق فى عينى السلحفاة الضيقتين لفترات طويلة ويسرح بخواطره بعيدا ..

قبل أسابيع لم يكن يلتفت إليها وربما لم يُطِل النظر إليها مرة منذ اشتراها من محل طيور الزينة ليسعد بها طفله الوحيد عماد .. فقد رأى عماد فى بيت خالته سلحفاة يلعب بها أطفالها فتمنى على أبيه أن يشترى له واحدة مثلها .. ولم يعترض على رغبته لكن زوجته هدى اعترضت وأبدت سخطها ومخاوفها من أن السلحلفاة ستنشر فضلاتها القذرة فى الشقة وسوف تحتاج إلى خدمة وطعام .. وكعادته معها راح يهون عليها الأمر ويقنعها بإمكان تحقيق رغبة ابنهما الوحيد بغير أن تضاف إلى مسئولياتها متاعب جديدة .. واشترى السلحفاة وصنع من أصص الزرع شكل دائرة محكمة لتصبح المساحة الخالية بينهما ملعبا لها لا تغادره .. وفرش صفحة من جريدة قديمة عليها ووضع لها الماء فى أناء صغير فوقها وقبلت هدى الأمر الواقع بفتور وضيق كعادتها فى كل أمور حياتهم وسعد بها عماد كثيرا وأصبحت شغله الشاغل يضع لها أوراق الخس الخضراء فى الصباح .. يغير

لها الماء .. يستأذن أمه فى أن تسمح للسلحفاة بجولة حرة فى الشرفة فترفض صارخة مرة ومرات حتى يستعطفها هو رحمة بطفلهما .. فتوافق كارهة .. ويجرى عماد فيفتح لسلحفاته ثغرة بين الأصص ويرقبها وهى تخرج منها ببطء وتتجول فى انحاء الشرفة .. ويعيدها إليها إذا غامرت بمحاولة التسلل لداخل الشقة .. وعماد سعيد وهو سعيد بسعادته .. وهى فاترة المشاعر فى بعض الأحيان..وساخطة بلا سبب واضح فى أحيان أخرى ..

الآن استراحت من كل المشاكل .. فهل كفت عن الشكوى والسخط ؟

لقد كان أصيلا كهذا الأصيل وتناقشا فى بعض أمور حياتهما العادية.. فشكت كالعادة من صعوبة الحياة ومن الملل الذى تحسه ومن رغبتها فى التغيير .. واتهمته بأنه لا يحس بشقائها لأنه يعمل ويخرج إلى الحياة ويلتقى بالأصدقاء ولا يقدر تضحيتها حين رفضت العمل لتتفرغ لبيته وطفله فذكرها بأنه يبذل كل ما فى وسعه لإسعادها وإسعاد طفلهما الوحيد وبأنه لا يمانع فى أن تعمل إذا كان العمل سيساعدها على التخلص من إحساسها بالضيق والفراغ .. لكن أين هو العمل وطالبته بأن يصنع شيئا أفضل لتحقيق أحلامهما الوردية .. فلفت انتباهها إلى أنه يعمل ١٠ ساعات كل يوم.. ويقبل أى عمل إضافى يتاح له ويعطيها كل مرتبه وعائد دخله ويترك لها حرية التصرف فيه ويرفض أن يشترى لنفسه بدلة جديدة لتشترى لنفسها ولعماد الملابس اللائقة . لكنها ضاقت فجأة بكل شىء فنهضت بعنف تجمع ملابسها وملابس عماد فى حقيبة وأعلنت أنها ذاهبة ! حاول أن يثنيها عن رغبتها .. واقترح عليها أن يخرج هو من البيت عسى أن تهدأ اعصابها الثائرة لكن العناد ركبها وواصلت جمع الملابس وترتيبها فى الحقيبة ..

واقترب منها محاولا أن يمسك بيدها .. فسحبتها بجفاء وصاحت :

سأغادر البيت ولن أعود !

ويئس من محاولة أثنائها عن رغبتها فرجاها مادامت لا تحتمل الحياة معه أن تدع له ابنه ليعيشا معا فى هدوء فقالت مستنكرة :

ـ كيف سترعاه وأنت تغيب فى عملك ١٠ ساعات كل يوم ؟

● سأصطحبه كل صباح إلى بيت أختى القريب ليلعب مع أطفالها إلى أن اعود من عملى ..

ـ لن أدعه تحت رحمة أختك القاسية !

● أختى أكثر حنانا به منك .. أنت القاسية عليه وعلىّ .. أنت الساخطة بلا سبب دائما .. أنه يفزع من صوتك العالى وضربك المستمر له .. أنت تعاقبينه وتعاقبيننى على جريمة لا أعرفها .. ماذا فعلت لكى تهددينى كل حين بترك البيت وتمزيق عماد بيننا ..

ـ خدعتنى .. أوهمتنى بأننا سنعيش حياة سعيدة فوجدتنى بعد سنوات أعيش محرومة من كل ما تتمتع به أخريات أقل منى أن الحياة معك طبخ وخدمة وتنظيف وجمع وطرح للنقود القليلة التى تكسبها لكى تفى بمطالبنا الأساسية.. لقد وعدتنى بأشياء كثيرة لم تتحقق لقد كذبت علىّ ..

● لم أكذب عليك .. لكنى كنت أحلم معك .. وأكافح كل يوم لإسعادك.. لكن ماذا أفعل لكى أرضيك .. وأين الحب الذى ربط بيننا ونحن طالبان فى الجامعة .. لقد أصبحت إنسانة أخرى ..

ـ وأنت ايضا أصبحت إنسانا آخر .. ثم أغلقت الحقيبة وصرخت فى عماد فجاء مهرولا ومفزوعا فامسكته من يده وحملت الحقيبة باليد الأخرى واندفعت إلى الباب وعماد يردد عينيه حائرا بين أمه وأبيه .. ويسأل اباه ببراءة :

ـ ألن تخرج معنا ؟

فلا يجيبه إلا بالصمت العاجز .. من الشرفة رآها واقفة فى الشارع تنتظر سيارة أجرة وتنظر إلى الإمام فى جمود ورأى عماد يرفع رأسه إلى الشرفة

ويبحث بعينيه عنه إلى أن رآه فابتسم له فى خجل كأنما يعتذر له بابتسامته عن اضطراره للذهاب بعيدا عنه ..

* * *

يوما بعد يوم أصبح يعود من عمله فيصنع قهوته ويحملها إلى الشرفة ويرشف منها ببطء ويدخن ويستغرق فى تفكير طويل حزين.. وفى إحدى جلساته هذه تنبه إلى وجود السلحفاة التى نسيها تماما .. وتذكر أنها لم تطعم شيئا طوال الأيام الماضية .. فأسرع يحضر لها أوراق الخس ويسكب لها بعض الماء فى إنائها الفارغ .. وانشغل بمراقبتها وهى تلتهم الأوراق بشراهة وتشرب الماء حتى ترتوى .. وتساءل فى باطنه ترى هل تفتقد صديقها الصغير كما افتقده أنا بشدة ؟ وبعد دقائق من النظر إليها أحس إحساسا غريبا بأن شيئا مؤلما يجمعهما معا هو الاحساس بالوحدة.. والهوان على من يحبان !

وبعد أسبوع من رحيلها لم يستطع أن يغالب حنينه إلى عماد وإليها فتوجه إلى بيت أسرتها واكتوى قلبه بلسع النار حين اعتذرت له أمها بأن هدى مريضة ولن تخرج من غرفتها لاستقباله ، فاستأذن لاصطحاب طفله إلى نزهة قصيرة وانصرف معه منكس الرأس ..

* * *

طالت غيبتها هذه المرة أكثر من أى مرة سابقة .. وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبه بعد أن عادت شقيقته من زيارتها مكتئبة وخائبة المسعى .. كان الحب يبرأ من هجمة الاحباط المفاجئة بعد قليل .. ويساعده على الشفاء منها الحاح عماد فى العودة لأبيه .. لكن الهجمة استعصت على المقاومة هذه المرة .. وفقد عماد بعض تأثيره الخطير على علاقتهما .. أو لعل حكم العادة قد حقق تأثيره القاتل وخف الحاحه عليها يوما بعد يوم .. فصمدت له وتحجرت المشاعر .. خاصة وقد بدأ عماد يتكاسل أحيانا عن الاتصال به ويعتذر له عن ذلك بأنه كان مشغولا باللعب مع رفاقه هناك ..

وبدلا من أن يجيئه صوتها المعتذر فى التليفون كما حدث مرتين من قبل جاءه صوت شقيقها بكلمات قاتلة كالسم يقول له إنه ليس من اللائق أن يبقى فى عصمته من لا تريد الحياة معه .. !

* * *

انهزم الحب .. وسلم سلاحه .. وفشل عماد فى رأب الصدع الذى تهدم فى قلبها .. وتمت المراسم الحزينة فى وجوم وجاء أخوتها فحملوا أثاث عش الأحلام ورفضوا بناء على أوامرها استلام سلحفاة ابنه وخلت الشقة إلا من سرير قديم ومكتب وبعض المقاعد فأصبحت شاهدا على الخراب الذى انتهت إليه أحلام السعادة ورغم الآلام فمازال وتر فى القلب ينبض بأن القصة لم تنته بعد ولابد أن سيأتى يوم يجتمع فيه الشمل بطريقة سحرية وتعود الحياة للعش الخالى فاستمسك بهذا الوتر حتى النهاية ووجد نفسه يعتذر عن قبول دعوات شقيقته وأسرته وأصدقائه .. ويقضى كل يومه بعد انتهاء العمل يتجول فى خرائب شقته ثم يصنع قهوته ويحملها إلى الشرفة ويجلس فى مواجهة أصص الزرع والسلحفاة ويستسلم لأفكاره الحزينة ساعات طويلة .. فيستعيد شريط قصته مع هدى منذ البداية .. ويستعرض فى خياله مشاهد حياة طفله عماد منذ جاء إلى الدنيا قطعة من اللحم الطرى إلى أن بدأ يستجيب لمداعباته لأول مرة ويتذكر أول ابتسامة ارتسمت على وجهه الغض وأول ضحكة افتر بها ثغره وأول مرة حبا فيها على الأرض .. وأول مرة انتصب فيها جسده الصغير واقفا .. ويستعيد حكاياته مع الأشياء .. وأسرف فى احتساء القهوة والتدخين .. والاستغراق فى التفكير الحزين .. ومن حين إلى آخر يرقب السلحفاة فيجدها ساكنة فى موضعها تمد إليه رأسها الصغير بخوف وحذر .. وتنظر إليه بعينيها الضيقتين نظرات ساكنة فخطر له ذات مرة أن يسألها عن ذكرياتها مع عماد .. وتمنى لو كان يستطيع أن يفهم لغتها ليتبادل معها الحديث عن حبيبهما الغائب ..

وذات أصيل استغرق فى النظر إليها وهو يستعيد صورة عماد فى مخيلته فخُيِّل إليه أنه يرى صورة طفله فى إنسان عين السحلفاة يشير إليه بيده ويبتسم .. ويقول له إنه يحبه ولا ينساه لكن ماما لا تسمح له بالاتصال به تليفونيا كلما أراد وأنه رغم ذلك يحلم باليوم الذى تعود فيه الحياة كما كانت جميلة وصافية وينسى الجميع المحنة العابرة ..

فركز عينيه طويلا على عين السلحفاة .. واقترب منها أكثر ليستجلى صورة عماد داخلها ويتحقق من ملامحه .. فإذا بغمامة تعترض نظره وتؤثر على وضوح الصورة .. فضاق بها وحاول أن يزيحها بيده فلم يجدها.. وإنما ترطبت يده بسائل حار اكتشف حين أفاق من ذهوله أنه دموع ساخنة توقفت قليلا فى عينيه فحجبت عنه الرؤية بعض الوقت ثم سالت فعادت صورة عماد للظهور مرة أخرى جميلة .. وادعة .. ضاحكة.. واعدة بعودة الحب والسعادة من جديد .. فهتف لنفسه صامتا: رحمتك بالمهومين ياالهى ..

العملاق النائم

** كتبت إليّ تروى قصتها مع الحب والحياة .. فتوقفت مذهولا أمام تجربتها الغريبة .. قالت لى فى رسالتها :

أنا « آنسة » فى الخامسة والأربعين من عمرى .. ولا تندهش من ذلك فمثلى كثيرات هذه الأيام وقد نشأت فى أسرة متوسطة الحال وشققت طريقى إلى الدراسة وكان شاغلى الأكبر طوال صباى وشبابى الأول هو أن أتفوق وأحصل على شهادة مرموقة أعمل وأعتمد على نفسى فى حياتى .. وخلال دراستى بالكلية العملية التى التحقت بها لم أحاول الاقتراب من أى زميل خوفا من انشغالى به عن دراستى فانقضت سنواتها بلا أية تجارب عاطفية وتخرجت متفوقة وعملت واستقررت فى وظيفة لائقة .. وبدأت فى تلك الفترة فقط التفت إلى ما ينبغى لمثلى أن تفكر فيه وهو الحب والزواج .. وتقدم لى خطاب كثيرون لكن السنوات الطويلة التى انصرفت خلالها إلى التفكير العملى فى كل شىء صبغت تفكيرى فى هذا الأمر بنفس الصبغة العملية الجافة .. فهذا وضعه لا يناسبنى وهذا أسرته صغيرة وهذا يكبرنى بعشر سنوات وهذا شكله لا يريحنى ثم بلغت الخامسة والعشرين من عمرى وبدأت أمى وأخوتى يلفتون نظرى إلى أنى تأخرت فى الارتباط فى حين تمت خطبة كل زميلاتى فقبلت خطبة طبيب شاب فى الثلاثين من عمره ولم تستمر الخطبة سوى بضعة شهور وكان السبب فى فشلها هو أنى

أبحث عن الحب لدى الطرف الآخر لكنى لا أقدمه له وأبحث عن التعاطف عنده ولا أمنحه له .. كأنى جهاز استقبال غير قادر على الارسال والاستقبال فى نفس الوقت ، ولأن الحب طريق ذو اتجاهين فلقد فشلت فى الحصول عليه .. وفى خلقه أيضا لدى الطرف الآخر .. وتكررت نفس القصة الفاشلة بحذافيرها مع مهندس شاب بعدها بعامين ،فقد انتظرت منه أن يحبنى بغير أن افكر فى أن أحبه.. وأن يتمسك بى ويكافح ليفوز بى .. وأنا لا أبذل أى جهد للحفاظ عليه والتمسك به وكانت النتيجة أن تركنى غير نادم .. وخسرته غير آسفة عليه .. ثم تزوجت شقيقاتى وأشقائى .. ووجدت نفسى وحيدة فى مسكن الأسرة وقد تحولتُ إلى مشكلة عائلية لأمى وأخوتى بعد أن تخطيت الثلاثين وكف الخطاب عن التقدم لى .. وشاع عنى فى دائرة الأقارب والمعارف أنى متكبرة مغرورة تريد أن تأخذ كل شىء بغير أن تضحى بشىء من مشاعرها للآخرين .. وكثرت التعليقات حولى وأصابتنى بأزمة مع كبريائى الجريحة .. فاثمرت قرارا شخصيا غريبا هو الا أفكر فى الزواج وأن أوجه كل طاقتى وحيويتى للنجاح فى عملى وتأكيد ذاتى .. وأصبح تكوين أسرة صغيرة وانجاب أطفال والحياة إلى جوار زوج حلما لا أسمح لنفسى بالانشغال به أو الحزن على ضياعه ..

وصادفت هذه المرحلة من عمرى تطورا هاما فى حياتى العملية فقد انتقلت للعمل فى شركة عامة .. وترقيت فيها خلال وقت قصير إلى وظيفة اشرافية هامة وأصبحت مسئولة عن تنفيذ أحد مشروعاتها، واعتبرت نجاحى فى تحمل هذه المسئولية هو تعويضى النفسى عن الفشل فى الحب والزواج .. وأعطيت العمل كل وقتى وراحتى وأصبحت أخرج إلى الموقع فى السابعة صباحا فأظل اتنقل بين جهاته وأشرف على تنفيذ العمل.. وأتعامل مع عشرات العمال والمهندسين والحرفيين العاملين فيه حتى السابعة مساء.

ثم انتقل من موقع إلى موقع ومن نجاح إلى نجاح ومن ترقية إلى ترقية

وقد أهملت تماما كل شئون العاطفة والحب بل والإنسانية والرحمة فى التعامل مع المحيطين بى خوفا من الفشل ..

فعرفت بين الجميع بأنى « مديرة » قاسية القلب لا تقبل اعذارا للتراخى فى العمل .. ولا تعترف بالأسباب المألوفة للحصول على الاجازات وشدَّتها أقرب إلى متناول يدها من تفهمها لاعذار الآخرين.. فكرهنى البعض لشدتى وأعجب بى كثيرون لحزمى وغار منى رجال كثيرون لنجاحى .. ونسيت أنوثتى تماما .. فلم أعد أتذكر أنى امرأة الا فى بعض المناسبات الطارئة ، ثم حدث تطور آخر فى حياتى حين تمت ترقيتى إلى وظيفة رئيسية وهنأنى رئيس الشركة بالترقية وشرح لى كيف رشحنى لهذه الوظيفة وكيف دافع عن ترشيحه لى لدى المتشككين بأن التجربة العملية قد أثبتت أنى «أرجل» من كل الرجال المرشحين لتلك الوظيفة ..

ورنت عبارته رغم نواياها الطيبة فى أذنى رنينا غريبا .. وتساءلت هل أنا حقا « ارجل » من بعض الرجال وعدت إلى سكنى الخالى حائرة بين أن أسعد بالترقية وأن أحزن لفكرة الآخرين عن أنوثتى .. ونظرت إلى نفسى فى المرآة طويلا .. أبحث عن ذلك «الرجل» الموهوم فى شخصيتى . إن شكلى مازال مقبولا ومازال جسمى ملفوفا .. وأنوثتى بخير وكامنة تحت مظهرى العملى وصحتى جيدة وأناقتى ملحوظة فأين تلك «الرجولة» ؟

واحتفلت بترقيتى وبعيد ميلادى الثالث والأربعين فى أسبوع واحد ولاحظت بعدها أنى أصبحت أطيل النظر فى المرآة .. وأبالغ فى العناية بمظهرى .. وابالغ فى العناية بمظهرى .. وفى الاحساس بأنوثتى المحرومة .. وتساءلت عن السر فى سبب هذا الاحساس المفاجئ .. ثم بدأت أعترف به .. أنه ذلك المحاسب الشاب الذى عين بادارتى حديثا ولم يتعد عمره بعد السادسة والعشرين ! ولا أعرف كيف حرّك مشاعرى التى قتلتها بيدى طوال عشرين سنة فاستيقظت من مواتها فجاة وبعنف حرمان

السنين الطويلة ! لقد استيقظت .. ووجدتنى هذه المرة لا أقاوم ولا أهرب وانما استسلم استسلام المغلوبة على أمرها فقربته منى .. وعهدت إليه بأعمال هامة تجعله على صلة مباشرة ودائمة بى واهتممت بأمره وسعيت لحل مشاكله وهو سعيد باهتمامى به حتى لفت البعض انتباهى إلى مبالغتى فى هذا الاهتمام .. لكنى لم أعد قادرة على التحكم فى مشاعرى المتمردة .. وتجاوب الشاب معى وأصبح يبادلنى تعاطفا خفيا .. أما أنا فقد استسلمت لمشاعرى تماما وأحببت للمرة الأولى فى حياتى وأنا فى الثالثة والاربعين من عمرى !

يا إلهى أبعد هذا العمر الطويل من انكار الحب واهمال العاطفة يجىء الحب هكذا بلا دعوة .. حاملا معه كل هذه الزلازل ومهددا كل ما حققته من سمعة جادة واحترام ؟؟ وبينما أنا فى قمة استمتاعى بهذا الاحساس الغامر فاجأنى الشاب على حين غرة بأنه شبه متزوج لأنه عقد قرانه قبل أن يعمل معى على فتاة من أقاربه فى زواج تقليدى بلا حب فأصبت بصدمة عنيفة .. ومرضت ولازمت فراشى أسبوعا .. ثم عدت لعملى وأنا أحاول أن أتماسك وأن أقصيه عنى وعن أفكارى بلا جدوى .. فحين اتجنبه يقترب .. وحين ابتعد عن موقع العمل الذى يعمل فيه يلاحقنى بحجة عرض بعض الأوراق فلا أجرؤ على رفض مقابلته واعترف لنفسى بضعفى معه وحيرتى فى أمره وأمرى معه .. أهو يحبنى حقا .. أم يحب اهتمامى به ويخشى أن يفقدنى ويفقد مؤازرتى له فى العمل .. ومَن حولى ينبهوننى إلى ضعفى ومرضى لكن ماذا يفيد التحذير من خطر الحريق بعد اندلاع النيران ؟

لقد مضت الشهور وأنا أحاول الابتعاد عنه وهويلاحقنى بالبحث عنى ثم اتصل بى تليفونيا منذ شهور ليبلغنى بموعد زفافه فى اليوم التالى وليؤكد لى أنه لا حيلة له فى اتمام هذا الزواج المتفق عليه من قبل أن يرانى ويعرفنى .. وصارحنى لأول مرة بمشاعره المكتومة بعد عامين من الاقتراب

والتعاطف الخفى ..واعترف لى بأنه يحبنى منذ اقترب منى لأول مرة لكنه لم يستطع البوح بمشاعره للفارق الأدبى بينى وبينه .. ولفارق السن بيننا.. وأكد لى أنى أول حب فى حياته ، وذهل حين عرف أنه هو أيضا أول حب فى حياتى ..

وجرى هذا الحوار الباكى قبل زفافه بليلة واحدة وتلقى ردى بأنى أشاركه كل مشاعره ولا أريد نجاحا ولا مركزا أدبيا .. ولا أريد شيئا سوى استمرار قربه منى حتى نهاية العمر ..

وفى اليوم التالى لهذه الاعترافات الباكية تزوج ! وجاءنى بعدها بأيام ليطلب منى الزواج .. ويؤكد لى أنه قد أصبح شديد التعلق بى وأنه لا يحس تجاه زوجته بأدنى مشاعر الحب ..

وهكذا وجدت نفسى فى دوامة قاسية أننى فى الخامسة والأربعين من عمرى وهو فى الثامنة والعشرين .. أننى مديرة كبيرة وهو موظف شاب مرءوس لى .. أنى .. وأنه .. الخ .. حوار صامت بلا نهاية يدور داخلى كل لحظة وكل دقيقة ولا أصل فيه إلى قرار .. أهو يحبنى حقا ؟ أهو جاد فى عرضه للزواج منى ؟ أم غير جاد .. لقد صنع بى هذا الشاب ماكنت أظن أنه مضى زمانه إلى غير رجعة وأعاد إلىّ الاحساس بأنوثتى وقلبى .. وبالقدرة على التعاطف مع الناس بعد أن كنت قد فقدتها منذ سنوات طويلة .. فماذا أفعل معه يا سيدى ؟ أننى أعرف ردك مقدما لكن أملى كبير فى أن تكون أكثر رحمة بى وأن تساعدنى بشىء أكثر من عبارة : لابد من الابتعاد عن هذا الشاب الرائع فساعدنى يا سيدى لأنى أغرق وأريدك أن تمد إلىّ يدك بطوق النجاة !

* * *

وانتهيت من قراءة رسالتها فقفز إلى خاطرى ما روى عن الشاعر الاغريقى صاحب المآسى الشهيرة سوفوكليس حين سُئل عن رأيه فى

الحب فأجاب سائله على الفور : ناشدتك الله ألا توقظه فى قلبى .. فلقد نجوت منه.. فكأنى قد نجوت من أنياب وحش مستبد مجنون !

لكن كاتبة الرسالة لم تنج من هذا المستبد المجنون ، وإنما ظل نائما فى صدرها كالعملاق الذى جاء فى الأساطير أنه نام ألف سنة ثم أيقظه دبيب أقدام السائرين فوقه .. فانتفض مزمجرا ومكشرا عن أنيابه .. ولقد كان قُرب هذا الشاب منها هو دبيب الأقدام الذى أيقظ عملاقها النائم .. فانتفض هو الآخر مزلزلا الأرض من حوله .. وأول خطأ فى تقديرى وقعت فيه كاتبة هذه الرسالة .. وقادها إلى هذه المشكلة المستعصية هو إنكارها للحب فى سنوات شبابها فإنكار الحب وتجاهل الأنوثة سنوات طويلة لا يعنى أبدا الغاءهما .. وإنما يعنى فقط تجميدهما لفترة تطول أو تقصر .. ثم لابد ذات يوم من صحوة العملاق النائم .. ومن سوء حظك ياسيدتى أن صحوته قد تحققت على يدى من لا تستطيعين الارتباط به بغير أن تتزلزل الدنيا تحت قدميك ليس فقط للفارق فى المركز الأدبى .. وإنما وهو الأهم للفارق الكبير فى السن بينك وبينه ، فسبعة عشر عاما فى سن الرجل ، فارق ليس من السهل تجاهله .. وهو فارق ينذر بالمتاعب ويرشح الارتباط الزوجى للفشل بعد وقت لن يطول ..

وأنت ياسيدتى فى مرحلة من العمر تحتاجين فيها إلى الاحساس بالأمان فى حياتك الخاصة وليس إلى معابثة المجهول ومكابدة الخوف من المستقبل ، أنت فى حاجة إلى رفيق درب مناسب لك فى العمر لا يدفعه للارتباط بك نزوة عابرة أو التماس للتعويض النفسى عن حرمان عاناه فى شبابه وقد يتم أشباعه من طريق آخر فينتفى سبب الارتباط بينكما وإلى شريك لا تحيط دوافعه للارتباط بينكما . شبهات نفعية أو مادية ، لهذا فلن أقول لك لابد من الابتعاد عن هذا الشاب كما تخشين وإنما سأقول لك أنك تسبحين ضد تيار العمر والزمن وقوانين الحياة وكافة الاعراف السائدة فى

مجتمعك.. وهى ملاحة صعبة ليس من العدل أن تتكبدى عناءها .. فلماذا لا تتحلين بالحكمة التى هى ضمان السعادة !

إن العملاق الذى عاد للنبض من جديد يستطيع بعد فترة نقاهة عاطفية مناسبة أن يسترد عافيته وأن ينبض من جديد لشخص آخر لا تحول بينك وبينه الحوائل .. فلماذا لا تجربين استنفار ارادتك الحديدية القديمة للتحكم فى أهوائك .. ومغالبة نفسك وحصار الحريق المشتعل فى قلبك قبل أن ينتشر فى كل الأرجاء ... لقد فزتِ بلحظات ثمينة من السعادة.. عرفت خلالها أن قلبك يستطيع أن يخفق من جديد لمن يحركه .. ولابد من التوقف الآن والتطلع إلى المستقبل بأمل أكبر فى الاستفادة بتجربة السنين الماضية فى تجنب العثرات الجديدة .. وأول خطوة تستطيعين الاقدام عليها فى الطريق الصحيح .. هى أن تباعدى بين موقع عملك وعمله.. وأن تتجنبى رؤيته تدريجيا وأن تتفادى الاتصال به بقدر الامكان وأن تكفى فى أعماقك عن مداعبة الحلم المستحيل بالارتباط بشاب متزوج يصغرك بـ ١٧ سنة .. وحين تتخلصين من آثار هذه التجربة سوف تكتشفين أنك مازلت مرغوبة ومطلوبة .. ولكن من آخرين يكبرونك قليلا أو يقاربونك فى السن والمركز الاجتماعى ويلتمسون لديك نفس ما تلتمسينه لديهم .. وهو الأمان .. والتعاطف .. ورفقة الحياة الهادئة الجميلة بعد سنوات الكفاح الطويلة ..

إن هذا هو طوق النجاة الحقيقى لك يا سيدتى من الغرق.. فمدى يدك أنت إليه قبل فوات الأوان .. وشكرا ! ..

الشـريط القديـم !

ترامت إليه الأصوات المبتهجة من الشقة المضيئة وهو يصعد الدَرج إليها.. رأى بابها مفتوحا وفوق مدخله هلال من الانوار الملونة .. وأمامه يقف بعض المدعوين يتسامرون فحياهم ودخل مستحييا ، رأى فى المواجهة مقعدين كبيرين يتصدران بهو الشقة الواسع ومن حولهما باقات الورود وباقى المدعوين جالسين على هيئة مستطيل يلاصق جدران البهو.. جلس فى أقرب مقعد خال رآه.. وأخرج نظارته الطبية ليستعين بها على التحقق من الوجوه وركز عينيه على المقعدين الكبيرين وتطلع إلى وجه العروس الشابة بحنين غريب .. وخيل إليه أنه يرى نفس الوجه القديم !

بعد دقائق من التأمل الشغوف فى وجهها نقل عينيه إلى المقعد المجاور فرأى وجه الشاب يتفجر بالسعادة .. وعينيه لا تفارقان وجه خطيبته وهو يهمس إليها باسما .. ويداهما متشابكتان .. نفس المشهد منذ خمس وعشرين سنة .. والعمر شباب والأحلام ملونة بلون الورود .. وهو .. هو فى نفس هذا المقعد .. وهى .. هى .. فى المقعد المجاور ومن حولهما المدعوون على نفس مقاعد هذا الصالون الأثرى .. يتغير الإنسان أحيانا ويبقى الجماد على حاله مذكرا بعهد لم يُحفظ .. ووعد لم يوفّ به .. فأيهما أحق بالاحترام؟

قال لها وهو فى نفس هذا المقعد ، سعادتى فوق الاحتمال .. فأجابته

باسمة : نفس احساسى وأكثر ! تُرى بماذا يتهامس هذان الشابان الآن؟وهل تتغير لغة الحب من جيل إلى جيل ؟ إن الفتاة نسخة من أمها الجميلة .. فهل تكرر أيضا شخصيتها ..

كانت جميلة ووادعة وتشيع فى النفس احساسا هادئا بالسكينة والجمال .. تحابا وكان هو فى عامه الأخير بالجامعة وكانت شقيقته المتزوجة هى وسيطته إليها .. وتقدم لأبيها بعد التخرج فاستقبله فى نفس هذا الصالون مرحبا لكن مشاعره تضاربت أمام أمها القوية المتسلطة .. ومن اللحظة الأولى أخضعته لاستجواب دقيق عن دخله وامكاناته المادية واسرته ولم تبد مرحبة به . شكا إلى حبيبته فنصحته بأن يبدى معها أقصى ما يستطيع من مهارة لاكتسابها إلى صفه ، إذ بغير مساندتها لن يتم الزواج.. فتحامل على نفسه وحاول ارضاءها بكل الطرق .. فرضت عليه أن يقدم شبكة باهظة .. ومهرا .. فوق امكاناته المالية وأن يستأجر شقة فى نفس الحى حتى لا تشقُّ عليها زيارة ابنتها بعد الزواج فوعدها بأن يفعل المستحيل ليلبى طلباتها ، باع قطعة الأرض الوحيدة التى ورثها عن أبيه .. وباعت أمه ذهبها القديم واستدان من أقاربه .. وقدم الشبكة وأعد المهر فى انتظار القران .. ووقف عاجزا أمام الشقة وكلما عرض عليها شقة ملائمة أبدت اعتراضها عليها لأسباب واهية فإذا شكا لفتاته أذابت همومه بنظرة ساحرة أو لمسة يد حانية فيتوثب للبحث من جديد .. وفى نزهاتهما المختلسة يحلمان باليوم الذى ينفردان فيه بنفسيهما فى عشهما الصغير بعيدا عن رقابة الأم القاسية .. يداعبها قائلا : سوف أنتقم من رعبى من أمك فيك .. فتسأله بثقة : وهل أهون عليك .. فيسلم لها بأنها أغلى ما فى الوجود ، ويتحدثان عن المستقبل فتزقزق أمامه بحلمها الجميل ، سوف ننجب بنتا اسميها نهُى وسوف أزوجها ممن يختاره قلبها ولو لم يكن يملك شيئا .. كانت رقيقة وحالمة وتحب أغانى عبد الحليم حافظ .. وتدمع عيناها

حين تسمعه يغنى «خسارة .. خسارة فراقك ياجارة» وأكثر من مرة أهدته أغنيتها المفضلة فى برنامج ما يطلبه المستمعون .. فيسمع بقلب طروب اسمه واسمها يترددان عبر الأثير :

ومن إيمان إلى خطيبها كمال أغنية : أنا لك على طول خليك ليا ، فيقسم أن يكون لها إلى آخر العمر ثم اكفهرت السماء فجأة بدون مقدمات ، أعتقل شقيقه الوحيد ضمن حملة واسعة ضد تنظيم دينى كان قد بدأ وقتها يعيد لم شتاته ، ونقل هو من وظيفته الواعدة بالمستقبل المرموق إلى وظيفة هامشية كالمنفى فى مدينة صغيرة فى أقصى الجنوب وتملكه القلق والتشاؤم .. كانت أمها ترفض الشقة القريبة من بيتها بدعوى أنها بعيدة فهل ستقبل بأن يرحل بابنتها إلى المنفى البعيد !! وجاءه الجواب بأسرع مما توقع ، فعاد إلى بيته الذى خيم عليه الحزن منذ غياب شقيقه فوجد الشبكة وخاتم الخطبة ، عند أمه .. أسرع إلى التليفون فجاءه الرد من أمها كالصفعة.. ذهب إلى بيت حبيبته فتصدت له الأم ولسعته بكلمات مؤلمة أنها لا تريد لابنتها الوحيدة أن ترتبط بشاب مغضوب عليه ولا مستقبل له ورفضت أن تسمح له بمقابلتها .. ترصد فتاته عند الخروج من بيتها .. فرآها كسيرة منهزمة ، ولم تجبه سوى بالدموع، زار اباها فى مكتبه الحكومى فسمع منه كلمات مواساة .. ولم يجد لديه أية قدرة على تحدى ارادة الأم .. عاد يترصد فتاته وطالبها بأن تتوجه معه إلى المأذون ليضعا أمها أمام الأمر الواقع .. فأجابته باكية .. أنها أضعف من أن تفعل ذلك مع أن قلبها يريده ويتمناه .. سلم بالهزيمة واعترف لنفسه بأن أمها كانت تتحين الفرص للانقضاض عليه ثم جاءت الفرصة المواتية فصرعته بالضربة القاضية .. انسحب من المعركة مثخنا بالجراح .. وسافر إلى المدينة البعيدة ، ومن هناك راح يتلمس الأخبار من رسائل شقيقته فعرف أن فتاته خطبت بعد عشرة شهور إلى شاب يستعد للسفر إلى الخارج للحصول على

الدكتوراه فقال لنفسه وهو غارق فى الكآبة .. « كل شىء يُنسى ولو بعد حين » . حاول أن يتغلب على الوحدة والاكتئاب فانجرف إلى لعب الورق مع مجموعة من زملائه يعانون مثله من السأم واحساس النفى .. سيطر عليه داء القمار .. فقال لنفسه أنه يعالج جرحه المؤلم بالكى بالنار .. رحلت فتاته مع زوجها إلى الخارج وانقطعت عنه أخبارها وبعد سنوات خرج شقيقه من سجنه وعاد هو إلى العاصمة من المنفى .. فاستنفر ارادته ليتخلص من دائه الجديد .. رحلت أمه عن الحياة وخلا بنفسه وحيدا فى مسكنه .. نسى القلب فتاته بعد عامين أو ثلاثة من زواجها لكنه لم يجد فى نفسه دافعا ملحا للزواج رغم الحاح شقيقته .. عرف غيرها وأحب أكثر من مرة .. لكنه لم يعرف أبدا مذاق الحب القديم..

اقتنع بحاجته للزواج مع اقترابه من سن الأربعين فسلم قياده لها .. عرضت عليه فتيات كثيرات فسألها عن شقيقة زوجها الأرملة ذات الابنة الوحيد ة .. أشادت بأخلاقها وطيبتها لكنها سألته ولماذا الزواج من مثلها والفتيات فى متناول يديك ؟ فأجابها متأسيا : لم أعد فى سن الشباب .. ولم يعد للقلب مطمع إلا فى هدوء البال .. تزوجها بغير احتفال وتذكر يوم عقد قرانه هذه الصالة نفسها ومجلسه فيها يوم خطبة فتاته الأولى .. وسأل نفسه أهو صحيح ما يقوله البعض من أن فى حياة كل رجل امرأتين .. واحدة ندم على أنه لم يتزوجها وأخرى ندم على أنه لم يتزوجها ؟ لم يحر جوابا لكنه لم يقصر فى الحرص على نجاح زواجه واستمراره ،.. وقابلت زوجته ذلك باصرار شديد على التمسك به كأمل أخير لها فى الحياة .. فاستقرت حياته بها وإن خلا القلب من عاطفة الأيام الجميلة ، حاول أن يقنعها بعدم الإنجاب اكتفاء بابنتها لكنها أصرت على أن تنجب منه طفلا تربط حياتها به إلى الأبد .. استجاب راضخا ، وانجب « عماد » وهو فى الثانية والأربعين من عمره .. فى المناسبات الهامة فى حياة الإنسان تتجدد

الأشجان .. فاستخبر حين أنجب السنين فانباته أنه لو لم تعترض المحنة حياته لكان مولوده الأول الآن فى سن السادسة عشرة ..

تقدم فى عمله فرقى مديرا بعد ست سنوات من مولد عماد .. فاحتفل بعيد ميلاده وبالترقية فى يوم واحد .. ثم نقل إلى الهيئة التى يعمل بها مدير جديد من الجامعة جمعت بينهما عضوية اللجنة العامة فتقاربا .. وتبادلا المجاملات لكن شيئا ما كان يعوقه عن الاستجابة لتودده إليه ورغبته فى تحويل زمالتهما إلى صداقة .. فى أوقات الراحة كان يزوره أحيانا فى مكتبه ويحدثه عن ابنته الشابة بحب وإعجاب كبيرين ، وعندما احتفل هو بخطبة ابنة زوجته لم يدع أحدا من زملائه فى العمل لكن الصديق الجديد عرف بالخبر وبعث إليه بباقة ورد ، وعاتبه بروح رياضية على اغفال دعوته ، بعد شهور من ذلك اليوم دعاه المدير الجديد إلى حفل خطبة ابنته الكبرى فى حفل عائلى محدود ، ونبهه إلى أن ظروفا تتعلق بوفاة أحد أقاربه الحميمين قد اضطرته إلى اقامة الحفل فى مسكن أسرة زوجته بعيدا عن بيته وأعطاه العنوان ، أمسك القلم ودونه ثم خيل إليه أنه يعرفه.. فراح يستقصى بعض التفاصيل فاكدت له أنه نفس العنوان القديم ! وأنه مدعو لحفل خطبة « ابنته » التى لم ينجبها من خطيبته التى لم يتزوجها ! واسترجع معلوماته فرجح أنها الآن فى الثانية والعشرين من عمرها ، فاسترد نفسه سريعا من ذكرياته وهنأه بالكلمات التقليدية ثم راح يتفحصه باهتمام خفى كأنما يراه لأول مرة ، وهم بأن يسأله « عنها » وعن شكلها الآن وماذا صنعت بها الحياة ، لكنه عقلَ لسانه فى اللحظة الأخيرة ، وعده بالحضور وانصرف بعد نهاية العمل إلى بيته ومشاعر متضاربة تتناوبه لم يعد يحبها منذ سنوات طويلة .. لكنها ذكرى عزيزة فى زوايا القلب .. مر فى طريقه لبيته بمحل للزهور فأعطاه العنوان وأوصى بباقة ورود فخمة .. عاد للبيت فتناول طعام الغداء مع زوجته .. ووجد نفسه يتأملها خلسة ويرقب تصرفاتها التى

تتسم دائما بالحكمة مع ابنيها وقال لنفسه كأنما يخاطبها : فيكِ كل ما أرغب من عشرة هادئة وشخصية متزنة رصينة .. وعطف كعطف الأمهات لكن الحب شيء آخر بكل أسف .. وهو دائما لهيب متأجج بالسعادة أو العذاب وحتى عذابه فأنه يجعل للحياة مذاقا مختلفا عن طعم الركود .. لهذا فهو عدو الاعتدال ..

غادر المائدة إلى غرفة النوم وحاول أن ينام كعادته كل يوم بلا فائدة .. فكر فى ألا يذهب مكتفيا بارسال الورود .. لكنه لم يستطع مقاومة الرغبة فى رؤيتها ولو لمرة واحدة بعد كل هذه السنين قال لنفسه فلتكن زيارة إلى الماضى تنتهى بنهاية حفل الخطبة وتنتهى معها محاولات زميله الجديد لتحويل زمالتهما إلى صداقة حميمة .. تذكر فجأة الأغنية القديمة التى كانت تهديها له فى الراديو .. وتنبه إلى أنه لم يسمعها منذ سنوات .. قرر أن يبحث عن شريطها فى درج شرائط الكاسيت وسط أكوام الأغانى الصاخبة التى تفضلها ابنة زوجته وابنه ..

نهض من فراشه بعد ساعتين بلا نوم فتناول الشاى وارتدى ملابسه وبحث عن الشريط القديم ثم دسه فى جيبه وانصرف ، ركب سيارته متوجها إلى العنوان القديم فأدار الشريط واستسلم لأفكاره .. ترى هل سيرى الأم المتسلطة القاسية .. والأب المستسلم الضعيف .. وكيف يبدو شكل فتاة القلب القديمة الآن ، وهل ستعرفه من الوهلة الأولى .. يقولون أن الفتاة لا تنسى أول من خفق قلبها له بالحب .. ولو استسلم الحب لعوامل الزمن .. فهل هى من هذا النوع؟

فى القاعة جلس يتصفح الوجوه فرأى زميله مشغولا بتصوير ابنته وخطيبها بكاميرا الفيديو .. وتعرف على وجه شاب رأى فيه ملامح مشتركة مع العروس فخمن أنه شقيقها .. وتعرف على وجه رجل فى الأربعين رأى فيه نفس الملامح فقدر أنه شقيق فتاته الذى كان فى سن المراهقة حين ارتبط

بها .. لكنه لم يجد أثرا للأم المتسلطة ولا للأب الضعيف .. فعرف أن الزمن قد لعب معهما لعبته المحتومة.. ثم أخيرا رآها تخرج من الممر الجانبى الذى يؤدى إلى غرفة الطعام مع سيدة أخرى فتجمد نظره عليها . وقلبه يخفق بالانفعال ! تغيرت كما يتغير كل شيء فى الحياة .. لكن وجهها الملائكى الجميل صمد للزمن إلى حد كبير وامتلأ جسمها قليلا فازداد فتنة !

تنبه فجأة وهو منصرف كلية إلى تأملها إلى يد توضع على كتفه وصوت زميله يرحب به متسائلا فى مرح : متى جئت ؟ فنهض يصافح الأب السعيد ويهنئه ويتبادل معه الحديث ثم جذبه من يده ليقدمه للعروسين وصاح وهما فى الطريق إليهما ينادى زوجته ليعرفها به فجاءت باسمة ومدت يدها بإلفمد إليها يده وصافحها مهنئا والتقت العيون فلاحت علامات التذكر فى عينيها .. انكمشت ابتسامتها للحظة .. ثم عادت للاتساع من جديد وسألته بألفة : كيف حالك ؟ تظاهر بالمفاجأة قائلا : يالها من مفاجأة سعيدة .. كيف حالك؟

فتساءل زوجها بلهجة مرحة : هل تعرفان بعضكما ؟

فرد عليه متظاهرا بالتعجب . لمصادفات الحياة الغريبة : حقا أنها دنيا صغيرة .. لقد كنا منذ ست وعشرين سنة جيرانا لأسرة إيمان هانم ! فتبادلوا التعليق على هذه المصادفة السعيدة .. وتبادلا معا نظرة طويلة معبرة .. ثم انهت هى الموقف بدعوة الجميع إلى افتتاح البوفيه ، وتحرك المدعوون فى اتجاه غرفة الطعام فانتهز فرصة انشغالها وزوجها بهم وتسلل من الشقة فى هدوء .. عائدا من زيارته للماضى وصدره يجيش باحساس شفيف من الشجن الهادئ !

النــــداء الأخـــير

كانت تعيش حياتها كفتيات كثيرات فى بلدتها الساحلية الصغيرة تحلم بالحبيب المجهول الذى سيهبط ذات صباح من سفينته فيراها.. ويغزو قلبها .. وتتعلق به .. ثم يطلب يدها من أبيها موظف الفنار العجوز ويصطحبها إلى سفينته فتمضى حياتها معه تنتقل من ميناء إلى ميناء .. وتتقلب حياتها ما بين عواصف البحر وهدوئه.. وتحقق حلمها ذات يوم والتقت فوق الصخرة التى تطل على الميناء بهذا البحار الوسيم الذى ظلت تنتظره سنوات طويلة .. ويستولى على قلبها بأحاديثه عن البحر والعواصف. لكنه يتورط فى قتل ربان سفينته ويقرر الهرب فى سفينة أخرى.. ويلتقى بها ويعترف لها بجريمته ثم يخلع خاتما من يده وخاتما من يدها ويربطهما معا بخيط رفيع ثم يلقى بهما فى البحر ويقول لها : نحن الآن خطيبان .. والبحر شاهد على خطبتنا ، ويطالبها بانتظاره مهما غاب ليعود ويصطحبها معه إلى حياة البحر والانطلاق والحرية حتى نهاية العمر!

ويرحل البحار الغريب ومن كل ميناء يتوقف فيه يرسل خطابا إلى فتاته فى البلدة الصغيرة .. وشهرا بعد شهر تبدأ الفتاة فى التخلص من سحر هذا البحار ومن حلم مصاحبته فى رحلة دائمة ومستمرة إلى المجهول.. وتتزوج من طبيب القرية الذى سبق له الزواج وله ابنتان وتكتب للبحار بزواجها وتحررها من عهدها معه لكن البحار يرد عليها بأنه متمسك بحلمه القديم

ولن يتخلى عنه وسوف يأتى إليها ذات يوم فتكتشف كآبة حياتها كزوجة تقليدية لا يعدها الزواج إلا بمتاعب خدمة الزوج وابنته وربما بالحمل والانجاب ثم يصطحبها إلى البحر والمغامرة والحب المنطلق الذى لا تحده القيود ولا يثقله أطفال وعندئذ لن تستطيع مقاومة نداء الحب ونداء المجهول!

وتضيق بأفكارها فتصارح زوجها بالقصة كلها ويكتئب الزوج ويشتكى من قدره الذى أراد له أن يحب امرأة تحب شخصا غيره .. لكنها تحاول اقناعه بأنه لم يكن حبا وإنما ميل غامض للارتحال .. والانطلاق والحياة للحب بدون مسئوليات وتؤكد له أنها لا تحب أحدا غيره الآن.

وتمضى الحياة بالزوجين هادئة .. ثم ترسو فى ميناء البلدة الصغيرة ذات يوم باخرة كبيرة ينزل منها البحار الوسيم ويبحث عن فتاته القديمة ويندفع إليها بشوق السنين ويوسوس لها كما يوسوس الشيطان لضحاياه.. هيا .. ماذا تنتظرين هل تريدين أن تمضى حياتك كلها تطهين الطعام وتحيكين الملابس وترعين الأطفال وتغسلين ثيابهم وتكرسين حياتك لتلبية مطالبهم ثم تكتشفين فى النهاية أن الزمن قد سرقك وذبل شبابك وجمالك، ولم تستمتعى يوما بحياة الحب والحرية.

هيا معى إلى البحر ننتقل من مدينة إلى مدينة نبيت ليلة فى قلب العاصفة.. ونبيت أخرى والبحر هادئ جميل يحلو فيه العشق وكلمات الغزل .. فلقد خلقت لتكونى حورية من حوريات البحر.

ويدور رأس الزوجة وتبدأ فى مراجعة نفسها .. وتتساءل حائرة هل الحياة الهادئة الرتيبة التى تعيشها الآن مع زوجها هى ما تريده حقا ؟ لقد تزوجت زواج مصلحة من طبيب القرية المرموق .. وحياتها معه هادئة لا تعرف لذعة الحب ولا نار الألم .. لكن هل هذه هى الحياة التى تريدها ؟ ويستشعر زوجها الخطر ويتدخل للدفاع عن سعادته واستقرار حياته

ويقول للبحار مستنكرا هل تريد أن ترغمها على ترك زوجها واصطحابك إلى حياة الصعلكة والمغامرة ؟

ويجيب البحار لا .. وإنما أريدها أن تختار حياتها بكامل ارادتها وحريتها .. إذ ما الفائدة في أن تعيش معي وهي مرغمة على حياتها لأنها لم تجد البديل الذي كانت تتمناه في أعماقها .. كما تفعل الآن معك ؟

وتصيح الزوجة فجأة : بكامل إرادتي وحريتي .. بكامل ارادتي وحريتي.. هذه هي أول مرة أسمع فيها هذا التعبير نعم أريد أن اختار حياتي بكامل ارادتي وحريتي .

وتحزم أمرها وتطلب من زوجها أن يمنحها حريتها ويخلي سبيلها لتتخذ قرارها في حياتها « بكامل ارادتها وحريتها » .. لكي تختار ما تريده لنفسها وهي غير مقيدة بقيود الزواج ويتساءل الزوج منزعجا : أترحلين معه وهو غريب لا تعرفين عنه شيئا؟

فتجيبه بهدوء : عندما تقدمت للزواج مني كنت أنت أيضا غريبا لا أعرف عنك شيئا !

وتتمسك بأن يمنحها حريتها هذا الصباح .. على أن تبلغه بقرارها عندما يأتي المساء .. ويحاول الزوج ردها عما تفكر فيه ويقول لها أن سفينة البحار الغريب ستبحر في الصباح التالي ويختفي إلى الأبد فلماذا لا تقاوم هذه الرغبة الطارئة قبل أن تتخذ قرارا بهدم حياة مضت هادئة طوال الفترة الماضية لكنها تتمسك بأن تنال حريتها هذه اللحظة ليكون قرارها بكامل أرادتها وحريتها.

ويأتي المساء ولم تتخذ الزوجة قرارها بعد وفي صباح اليوم التالي يعود البحار وقد أنهى اجراءات سفرها معه ويفقد الزوج أخيرا أعصابه ويهدد بابلاغ الشرطة لكن زوجته تطلب منه مرة أخرى أن يترك لها حرية القرار . فينهار الزوج الوقور الذي لم يشعرها من قبل سوى بالاحترام والمودة

المتحفظة ويعترف يائسا بأنه لا فائدة من محاولته الإحتفاظ بزوجة تبتعد عنه بروحها وإن كان يحبها حبا عميقا ، ويقرر منحها حريتها وهو فى قمة التعاسة !

وتذهل الزوجة وتسأله غير مصدقة : أتعنى ذلك حقا من أعماق قلبك؟ فيجيبها : نعم من أعماق قلبى المعذب بحبك امنحك حريتك فى الاختيار بينى وبين هذا الرجل الغريب الذى حطم سعادتى!

وتطلق الباخرة الراسية فى الميناء صفارتها الأولى ايذانا بالرحيل فيتعجلها البحار جمع ملابسها والخروج معه للحاق بالباخرة .

لكنها مازالت مأخوذة بقرار زوجها وبمشاعره التى كشفت عنها محنة الاختيار فتسأل زوجها بتأثر : هل أصبحت حقا تحبنى كل هذا الحب ؟

فيجيبها بأن سنوات زواجهما قد علمته أن يحبها كل هذا الحب !

وتطلق الباخرة صفارتها الثانية .. فيزداد تعجل البحار لحبيبته لكنها مازالت مشغولة عنه بأفكارها وتأملاتها وتسأل زوجها : وهل أستطيع أن اختار الأن بملء حريتى وارادتى ؟ فيجيبها والأسى يكسو وجهه : نعم فتقول وكأنما تحدث نفسها : إن هذا يغير الموقف تماما ! وتستغرق فى تفكير عميق وتطلق الباخرة صفارتها الثالثة والأخيرة .. فيقول لها البحار هيا لم يبق إلا لحظات أنه نداء الرحيل الأخير .

فتنظر إليه الزوجة نظرة غريبة كأنما تراه لأول مرة وتقول له بتصميم: لن أذهب معك !

ثم تلتفت إلى زوجها وتقول له بحب وحنان : وأنت يا زوجى العزيز لن ابتعد عنك أبدا .. ولن أفارقك ذات يوم .

ويسدل الستار على مسرحية حورية البحر للكاتب النرويجى هنريك ابسن بعد أن تحررت « ايليدا » من سيطرة الرجل الغريب عليها .. ومن حلم الرغبة فى الانطلاق بلا قيود فى بحر من المجهول ، لقد ساعدها احساسها بأنها لم تعد مرغمة على الحياة معه لأنه لا بديل لتلك الحياة على اكتشاف

انها تحبه ويحبها وأنها سعيدة بحياتها معه ولا تريد أن تستبدل بها حياة أخرى لكنها لم تكن تعرف ذلك لأنها لم تكن تملك إرادتها وحريتها .

ولأن الإنسان المغلوب على أمره يتعلق دائما بالوهم والخيال فلقد تعلقت خيالاتها بحياة أخرى ورجل آخر ، وحين وضعت فى موضع الاختيار وأعطيت لها حرية القرار اختارت نفس الحياة ونفس الرجل وبدأت سعادتها الحقيقة من ذلك اليوم .

وهكذا نحن البشر غالبا . قد نشكو من حياتنا ونتصور أننا مرغمون عليها ونتمنى فى أعماقنا أن نغيرها .. وأن نصبح كهذا البحار الشارد .. نتنقل من ميناء لميناء .. من حب إلى حب بلا قيود .. ولا حدود .. ولا سدود فإذا استرددنا حريتنا وكامل ارادتنا اكتشفنا غالبا أننا سنختار نفس حياتنا بكل مافيها من أسباب للشكوى أو السعادة مع اختلاف بسيط هو أننا أصبحنا نعرف ماذا نريد . وماذا لانستطيع أن نحققه حتى لو أردنا .

وشكراً للكاتب النرويجى العظيم « هنريك ابسن » الذى لقننا هذا الدرس.. بغير أن نضطر لمعاناة التجربة الشخصية بكل آلامها .. وفوائدها !

شـىء .. مـن الصـدق !

جلست إلى مكتبى الصغير بمسكنى أقلب صفحات الكتب .. لاختار كتابا أمضى معه السهرة .

حين تضيق نفسى أبحث عن كتاب قديم سبق لى أن قرأته وأحببته فأعيد تصفحه وقراءة بعض صفحاته . عندما يكون الإنسان مجهدا نفسيا وجسديا لا يكون مستعدا للتعرف على أصدقاء جدد .. ويفضل ألا يراه فى حالته تلك سوى الأصدقاء القدامى الذين لا حجاب بينه وبينهم . نفس الشىء بالنسبة لى مع الأصدقاء من عالم الكتب ! مددت يدى إلى أحد رفوف مكتبى فوقعت على مجلد للأعمال الكاملة لأمير الشعراء أحمد شوقى فأخرجته وتصفحته . قفزت إلى خاطرى والكتاب أمامى قصيدة الشعر العربى الجميل التى اشتهرت بين النقاد باسم جميل هو « المؤنسة » لأن قائلها قيس ابن الملوّح كان يرددها لنفسه كثيرا ويأتنس بها ويتعزى عن افتقاده لحبيبته بعد زواجها.. فأعدت أعمال شوقى إلى مكانها .. وبحثت عن الكتاب الذى يضم « المؤنسة » فلم أجده .. لابد أن صديقا سمعنى أتحدث عنها باعجاب فطلب استعارته ووافقته فى لحظة ضعف ثقافية لا تتكرر كثيرا فى حياتى !

حاولت أن امتحن ذاكرتى باستعادة بعض أبياتها .. فلم تستجب إلا بأقل القليل . ما أكثر ما تسرب من الذاكرة خلال رحلة السنين .. فى صباى

كانت ذاكرتى زجاجة كبيرة فارغة عنقها واسع اسكب فيها ما اقرأه من زجاجة عطر صغيرة فيستقر فى قاعها كل ما سال منها من قطرات .

انقلبت الآية الآن فأصبحت ذاكرتى زجاجة عطر صغيرة ضيقة العنق اسكب فيها ما اقرأه من زجاجة كبيرة .. فيسقط خارجها أضعاف ما يسقط داخلها !

استرجع من ذاكرتى المجهدة بعض أبيات « المؤنسة » لعلها تؤنسنى فى وحشتى فأجدنى مازلت أطرب للبيت الجميل الذى يقول فيه :

لحـــا الله أقـــواماً يقـــولـــون أنَّـــا
وجــــدنا طــوال الدهــــر للحب شــافيــا

ثم أنبهر من جديد ببيته الفريد الذى يقول فيه :

فيارب ســوِّ الحـــب بينـــى وبينـــها
يكـــون كـفافـا لا علــى ولا لـيا

يا إلهى .. كيف عرف الشاعر العربى القديم هذه الحقيقة التى احتجنا إلى تلال من كتب علم النفس .. وسلاسل من تجارب الألم والسعادة لكى نعرفها ؟ أن من يحب أقل يتحكم أكثر .. ومن يحب أكثر يخضع أكثر ! وأن أفضل أحوال الحب هى التى يتكافأ فيها الحبُّ بين الطرفين فلا يكون لأحد منهما ولا عليه !

شاب شَعر الشعراء والمحبين واكتووا بتجارب الألم قبل أن يكتشفوا هذه الحقيقة لكن شاعر الصحراء الذى لم يقرأ علم النفس عرفها بفطرته وحسه المرهف فدعا ربه أن يسوى الحب بينه وبين حبيبته !

أما بيته الآخر الذى يهز مشاعرى كلما استرجعته .. فليس شعرا من حروف وكلمات وإنما صرخة من أحاسيس ومشاعر :

قَضَاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلَّا بشىء غير ليلى ابتلانيا ؟

كلما استعدت هذا البيت أحسست بالسخط على المتحجرين الذين اتهموه

بأنه يتسخط فيه على قضاء الله ويبدى اعتراضه عليه . إنه لايعترض على القضاء وإنما يطلب اللطف فيه .. والقضاء هو زواج ليلى من غيره وحرمانه منها .. واللطف الذى يرجوه من ربّه هو أن ينزع الله حبها من قلبه بعد أن قضاها لغيره وأن يبتليه بشىء آخر غيرها ما دام لم تعد له وسيلة إليها .. فماذا فى ذلك من اعتراض؟

أفيق من تأملاتى الباطنية فى قصيدة قيس .. فأنهض مرة أخرى وأبحث بين الكتب عن كتاب آخر .. تقع يدى على مجلد ضخم فى الفقه فأخرجه من مكانه .. وأضعه على المكتب وأتصفحه ثم أتوقف أمام فصل يتحدث عن حقوق الزوجة على زوجها والزوج على زوجته .. أعيد قراءته فيتجدد عجبى وإعجابى بما أولاه الإسلام من اهتمام بالغ بالحياة الزوجية والأسرة حتى لم يدع تفصيلا من تفصيلاتها لم ينظمه ولم تكن له فيه نظرة حكيمة بعيدة.

استغرق فى قراءة صفحات هذا الفصل .. فأقف مبهورا أمام حقيقة مذهلة يزداد عجبى لها كلما قرأت عنها . إن الإسلام الذى ينهى عن الكذب ويؤثّمه إنما يرخّص به بلا أثم ولا عقاب فى ثلاث حالات محددة ... فيبيحه إذا أردت به خيرا وأردت به الاصلاح بين الناس .. كأن تسعى بين اثنين متخاصمين فتقول لكل منهما على لسان الآخر كلاما طيبا لم يقله عنه لكنه يسهم فى تصفية النفوس ويعيد الوئام بينهما ، لأنه كما جاء فى الحديث الشريف « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا أو يقول خيرا» ويرخص به أيضا فى الحرب لان الحرب خدعه .. ولأنه حريص على أرواح البشر ودمائهم فيرخّص لهم به حماية لأنفسهم من الهلاك ولتحقيق المصلحة العامة .

أما ثالث الأحوال التى يرخّص به فيها فسوف تعجب حقا حين تعرفه !

وقد جاء فى كتب الفقه بنص هذه العبارة : « وفى حديث الرجل لامرأته وحديث المرأة لزوجها ».

وقبل أن تفزع وتتصور أن الرخصة تشمل كل ما يدور بين الزوجين من أحاديث أقول لك أن الإسلام ينهى عن الكذب فى الحديث بين الزوجين ويؤثِّمه ويطالب الزوجين بأن يلتزما الصدق فى كل ما يقوله طرف لآخر لكنه لُطفاً منه وحكمة يرخِّص لهم فى عدم الالتزم به فى حالة واحدة هى إذا سأل أحدهما الآخر عن حقيقة مشاعره تجاهه . هنا فقط يرخِّص له أن يصمت وأن يتهرب فإن لم يستطع أجاز له أن ينطق كذبا غير باغ ولا عادٍ!!

لماذا ؟ لأنه ما دام كل من الزوجين لا يريد الانفصال عن الآخر ولا يريد هدم أسرته الصغيرة وتمزيق أبنائه بينه وبين زوجته .. ولن يترتب على المصارحة سوى الكدر وإيلام الطرف الآخر وتعقيد الحياة .. وربما سد الأبواب على احتمال اشتعال الحب من جديد فى قلب من لا يحب . أولا تحب شريك حياتها.. فما جدوى الصدق هنا .. وما هو اثم الكذب الذى يرضى النفوس ويسعدها ويحترم مشاعر الطرف الآخر ويحمى سفينة الحياة الزوجية من الغرق ؟

وأى رقى وتحضر وتقدير لمشاعر الإنسان وكرامته من هذه النظرة الحكيمة التى تستهدف مصلحة الأبناء ومصلحة الطرفين فى هذه الرخصة « النبيلة » ؟

لقد اشتهر أحد العرب فى عهد خلافة الخليفة العادل عمر بن الخطاب بأنه يتزوج النساء ويطلقهن كثيرا ، وهم بطلاق زوجته فساءه أن سمع الناس يتحدثون بأنه يظلم نساءه .. وأراد أن يثبت لعمر عكس ذلك ، فاصطحب أحد الصحابة من مجلس عمر إلى بيته ثم دعا زوجته وسألها أمامه : أنشدك الله ... هل تبغضينني ؟ فأجابته : لا تنشدنى الله .. فقال لها: بل أنشدك .. فأجابته : نعم ، فعاد مع الصحابى إلى مجلس عمر وروى له ما

حدث تدليلا على أنه لم يظلم من أراد طلاقها .. فاستدعاها عمر وسألها .. أنت التى تحدِّثين زوجك أنك تبغضينه ؟ فأجابته : لقد ناشدنى فتحرجت أن أكذب ... افأكذب يا أمير المؤمنين ؟

فإذا بالعظيم عمر يقول لها : نعم أكذبى .. فإن كانت احداكن لا تحب احدنا فلا تحدثه بذلك .. فإن أقل البيوت الذى يبنى على الحب !

كدت أنسى نفسى حين وصلت إلى هذا الجزء من القصة وأنهض واقفا وأصفق بشدة للخليفة العظيم الذى لم يدرس علم النفس فى جامعة هارفارد.. ولا فى جامعة كمبردج ومع ذلك فقد وضع يده بحكمته على هذه الحقيقة من حقائق النفس البشرية .. أن أقسى ما يؤلم الإنسان هو أن يحس أنه مكروه من أقرب الناس إليه .. فلماذا نجرِّعه هذا الألم ما دام الطرفان قد ارتضيا الحياة معا بالتراحم ... وحسن المعاشرة .. ولمصلحة الأبناء .

إن الإسلام يبيح للرجل أن يطلِّق زوجته إذا كرهها مع كراهة الإسلام للطلاق ... لكنه لا يحلُّ له أن يجرح مشاعرها بهذه العبارات القاسية: أكرهك... لا أطيقك.. أكره صوتك ووجهك ورائحتك وقُربك !

ويبيح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا كرهته .. لكنه لا يحلُّ لها أن تجرح مشاعره بمثل هذه العبارات القاتلة . وفى عهد الرسول الكريم جاءته إمرأة تطلب الطلاق من زوجها وتقول له عنه:

ما اعتب عليه فى خلق ولا فى دين لكنى أكره الكفر فى الإسلام ! ، تقصد أنها لا تنكر خلقه ولا دينه لكنها تبغضه وتخشى أن يدفعها كرهها له إلى التقصير فى أداء حقوقه عليها فتأثم ، فيسألها الرسول الكريم : أتردِّين عليه حديقته ؟ فتجيب بنعم فيقول لها : ردِّى عليه حديقته ... ويقول لزوجها.. طلقها تطليقة .. فهل هناك تقدير لمشاعر الإنسان أرقى من ذلك؟

لقد كرَّم الله الانسان وكره له أن يجرح أحد مشاعره بالكلمة أو حتى بالإشارة .. فأى تحضُر مرة أخرى وأى رُقى ؟

استغرقنى التأمل فى هذه المعانى السامية طويلا ... فلم انتبه إلى أنى لم أعد وحدى فى غرفة مكتبى .. وإلى أن هناك من يجلس أمامى ويتحدث إلى وأنا أنظر إليه بعينين مفتوحتين وذهن شارد .. لا أعرف منذ كم من الوقت.. لكن حواسى تنبهت فجأة حين سمعت هذا السؤال المتجدد : كم تحبنى ؟

فأفقت من تأملاتى .. وارتجَّ علىَّ الأمر للحظات ثم وجدتنى فجأة أغلق الكتاب المفتوح بحيوية شديدة وأرفعه بيدى فى الهواء وأنا فى غاية السعادة والابتهاج قائلا بصوت عال :

بعدد حروف هذا الكتاب الضخم ... العظيم ..

ثم نهضت نشيطا وأعدت الكتاب إلى مكانه الخالى فى رف المكتبة وعدت إلى مكتبى ... وأنا أحس له بإمتنان شديد !

هم وزوجاتهم وحظوظهم !

حظ الرجل فى الحياة زوجة تسعد أيامه وحظ المرأة زوج يلون أيامها بلون الورد . وعلى كثرة ما قيل وكتب عن شروط الزواج الناجح فلم يعرف أحد بعد سر التميمة التى تجعل من زواج محكوم عليه بالتعاسة والفشل زواجا نابضا بالحب والتعاطف والاستقرار ولا سر التميمة الفاسدة التى تحول زواجا توافرت له كل شروط السعادة إلى مأساة تشقى أيام الزوجين أو أحدهما .

إذ كما يولد الإنسان بريئا كوعاء خال تصب فيه الحياة والأسرة مؤثراتهما يقبل كل إنسان على الزواج يحلم بالسعادة واستقرار سفينته فى مرفأ الحب والأمان ثم تلعب معه الأيام لعبتها فتسعده بزواجه أو تشقيه .

وكم من زوجات شقين بأزواجهن فلم نعرف عن تعاستهن شيئا لانهن نساء عاديات لم يؤرخ لشقائهن أحد .. وكم من أزواج تجرعوا كأس المرارة فى حياتهم مع زوجاتهم ولم يهتم أحد بتسجيل مآسيهم الشخصية لأنهم من « تراب الإنسانية » كما كان الفيلسوف نيتشة يسمى البشر العاديين ، لكن الأمر يختلف مع الرسل والأنبياء والشخصيات التاريخية والعظماء والمفكرين فكل شىء فى حياتهم يوضع تحت عين التاريخ فتسجله ثم يرويه لنا الراوون وهكذا عرفنا من منهم سعد فى حياته الخاصة ومن منهم شقى بها وعرفنا مثلا أن اثنين من الأنبياء والرسل قد شقيا بزواجهما هما سيدنا

نوح وسيدنا لوط لأن زوجتيهما كما أنبأنا القرآن الكريم لم تؤمنا بهما وخانتاهما فى العقيدة الدينية فكانت امرأة نوح تفشى سره وسر من آمن به إلى الجبابرة من قومه ، وكانت امرأة لوط تدل قومه على ضيوفه الذين كان يكتم ضيافته لهم خوفا عليهم . وعرفنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سعد بعشرته للسيدة خديجة رضى الله عنها وعاش معها حياة زوجية سعيدة إلى أن اختارها الله إلى جواره ، وأنه أحب من بين زوجاته أكثر من غيرها عائشة .

ثم تتوالى قصص الشخصيات التاريخية مع زوجاتهم حتى أتوقف أمام هذه السيدة : جعدة بنت الأشعث بن قيس ! لقد كانت زوجة للحسن ابن على ريحانة رسول الله وكان الحسن قد تولى الخلافة بمبايعة أهل الكوفة بعد قتل أبيه الإمام على بن أبى طالب فأقام فى الخلافة ستة شهور ثم سار إليه معاوية ليحاربه كما حارب أباه ويرغمه على الطاعة ، فصالحه الحسن على أن يتنازل لمعاوية عن الخلافة ، على أن تكون له من بعده وعاد إلى المدينة فأقام بها ، وكان الحسن كثير الزواج وقلما تزوج امرأة الا وأحبته ومالت إليه لكرم أخلاقه وحسن معاشرته إلى أن تزوج هذه المرأة فلم تحبه فيما يبدو أو لعلها أحبته قليلا لكنها أحبت الجاه والمال والمجد أكثر : فاستجابت لاغراء رسل يزيد بن معاوية الذى يطمع فى وراثة الملك من بعد أبيه ، فقبلت ما اغراها به يزيد على وعد منه بأن يتزوجها ودست السم للحسن فى طعامه ومرض سيد شباب أهل الجنة مرض الموت فطلب من شقيقه الحسين ريحانة الرسول الأخرى أن يستأذن عائشة فى أن يدفن مع جده رسول الله فأذنت لكن مروان بن الحكم منعهم فدفن إلى جوار أمه السيدة فاطمة بالبقيع .. وقبل صعود روحه إلى بارئها حاول الحسين أن يعرف من شقيقه من سقاه السم بلا جدوى وآثر الا يظلم أحدا مع شكه فى جعدة .

ومات حفيد الرسول وجلست قاتلته تنتظر انقضاء العدة فإذا ما

انقضت بعثت إلى يزيد تسأله الوفاء بوعده وأن يتزوجها ، فإذا بيزيد يرفض ويعوضها ببعض المال قائلا لها ببساطة : إنا لم نرضك للحسن افنرضاك لأنفسنا ؟!

ومعه كل الحق فى ذلك مع أنى لم أكره من شخصيات التاريخ فى صدر الإسلام أحداً كما كرهت يزيد قاتل الحسين - إذ كيف يأمن رجل لامرأة دست السم لزوجها الأول حتى ولو كان ذلك ارضاء له أو سعيا للزواج منه؟

والملاحظة الغريبة هى أن التاريخ يحفظ لنا قصص العظماء الذين شقوا بزوجاتهم أكثر مما يروى قصص الزوجات اللاتى أسعدن أزواجهن ووفرن لهم أسباب الاستقرار والهدوء والنجاح فقرأنا الكثير مثلا عن « انثبى » زوجة سقراط التى كانت لا تدع فرصة بدون أن تذكر زوجها الفيلسوف المشغول « بنشر الحكمة بين أهل أثينا » باهماله لمهنته الأصلية كنقاش واهماله لأسرته .. ولم تعرف له أبدا قدره ولم تفهم سر التفاف الشباب المبهورين بشخصيته حوله واعجابهم به الذى يصل إلى حد التقديس فإن كان فى نظرهم عقلاً جباراً تتمثل فيه حكمة الآلهة وشخصا شديد الجاذبية لا يطيقون مفارقته فهو فى نظرها نقاش فاشل أنفه أفطس وشفتاه غليظتان وعيناه شديدتا الجحوظ وجسمه ضخم وعقله خائب مشغول عن كسب الرزق بهذه الخزعبلات التى تجمع حوله الشباب الضائع!

ولا غرابة فى ذلك فلا كرامة لنبى فى وطنه ووطن الإنسان الصغير هو أهله وأسرته .. ولم تكن لابراهام لنكولن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة أية كرامة فى وطنه الصغير أى عند زوجته مع أنه كان موضع احترام الملايين وحبهم فى وطنه الكبير ومن أعظم رؤساء أمريكا .

لقد ولد عام ١٨٠٩ واغتيل فى عام ١٨٦٥ وقيل إن زواجه كان مأساة

اشد إيلاما من مأساة اغتياله ! فلقد تزوج وهو محام بسيط من مارى تود لنكولن عام ١٨٤٢ وأنجب منها أربعة أبناء لم يعش منهم سوى واحد فكانت زوجته كثيرة الشكوى دائمة الانتقاد وحادة الطباع وشرسة وعالية الصوت يسمع الجيران صوتها المجلجل عبر الطريق فحاول أن يتجنب رؤيتها بقدر الامكان وتشاغل عنها بعمله كمحام ثم بالسياسة وبموقفه الرافض لاسترقاق الزنوج واشتهر بالامانة والاستقامة الخلقية وانتخب رئيسا للولايات المتحدة مرتين وحين اغتيل كان ابراهام لنكولن موضع حب الملايين واحترامهم .. لكن لم يكن من بين هؤلاء الملايين للأسف المرأة الوحيدة التى اختارها لتشاركه حياته !

والروائى العظيم ليو تولستوى سعد بعض الوقت بزوجته ثم بدأت تنغص عليه حياته حين مال للزهد وكراهية الترف وحاول أن يعيش رغم ثرائه وجاهه وشهرته العريضة حياة متقشفة كحياة الرهبان يفلح الأرض بذراعيه ويقطع الأشجار ويصنع حذاءه ويكنس غرفته ويتناول طعامه فى وعاء خشبى كما يفعل الرهبان فى الدير ، فراحت تسفه آراءه وتسب وتلعن حين بدأ ينشر كتبه بلا أجر.. ثم تتولاها نوبات هيستيرية فتتمرغ على الأرض وفى يدها زجاجة سم تهدد بتناوله إن لم يخضع لإرادتها .

وفى سن الثامنة والثمانين عجز تولستوى عن احتمال الشقاء أكثر من ذلك فتسلل من بيته الكبير فى احدى ليالى أكتوبر الباردة المطرة سنة ١٩١٠ وهام على وجهه وبعد عدة أيام وجدوه ميتا باحدى محطات السكك الحديدية بعد أن أصيب بالالتهاب الرئوى ، أما الوصية التى خلفها وراءه فكانت باختصار : ألا تسمح أسرته لزوجته بأن تلقى على جثمانه النظرة الأخيرة حين تبدأ مراسم الجنازة !

فقد أراد أن يستريح من نكدها حتى بعد أن مات ولم تعد كآبتها يمكن أن تؤثر فى جسده المسجى بلا روح فى صندوقه !

وشارلز ديكنز الأديب الانجليزى العظيم أحب ابنة مدير لأحد المصارف وتمنى أن يتزوجها لكنها رفضت خوفا من ألا يستطيع أن يوفر لها امكانات الحياة التى تحلم بها .. فأصبح أشهر الكتاب الانجليز وأكثرهم ثراء وتزوج من أخرى شقى بها .. وكتب عنه النقاد أنه رضى بمزيج متعادل من النجاح الأدبى والتعاسة الزوجية.

والأديب الفرنسى العظيم فيكتور هوجو الذى أحبته الملايين فى بلاده حتى وقف هو نفسه مذهولا يرقب الجموع التى خرجت لاستقباله عند عودته من منفاه وقال متأثرا : لكم يحبنى هذا الشعب ! هذا الأديب العظيم قال النقاد أن حب زوجته « أديل » له كان كشمس الأصيل لا تبعث الدفء.. ولا تسلم الإنسان للبرد ! أى أنه كان حبا فاترا فلم يستطع أن يمنع نفسه من الاستجابة للمشاعر الملتهبة التى تكنها له صديقته جوليت وأسلم شراعه وقلبه لها.

والموسيقار العظيم تشايكوفسكى كان معذبا فى حياته الخاصة فصب شقاءه كله فى موسيقاه وألحانه .. وكذلك فعل الأديب العظيم دستوفسكى، ونابليون الثالث الذى تحدى إرادة مستشاريه وتزوج من الامبراطورة أوجينى أجمل نساء عصرها بعد حب ملتهب فأحالت حياته جحيما بسبب غيرتها الشديدة عليه .. فاختنق الحب بغاز النكدالسام وانصرف عنها بعد فترة بمشاعره وعرف غيرها .. ثم يئست هى منه بعد فترة أخرى فاستسلمت بعد حين لأهوائها !

وقصص الأزواج الذين شقوا بزوجاتهم كثيرة .. وقصص الزوجات اللاتى شقين بأزواجهن أكثر وليس معنى كثرتها أن الشقاء الزوجى هو الأصل والسعادة هى الاستثناء ، وإنما معناه فقط أن التاريخ يهتم بالفشل والشقاء لأنه خروج عن المألوف ويهمل قصص الوفاق الزوجى والسعادة لأنها الحياة الطبيعية . وهناك عظماء كثيرون فعلا كانت وراء كل منهم

امرأة منهم هنرى فورد مؤسس مصانع فورد للسيارات ، الذى لو لم تكن زوجته سيدة رائعة لما استجابت لرغبة زوجها بعد أسابيع من الزواج فى الانتقال من مدينتها إلى مدينة ديترويت ليجرى تجاربه الأولى على صناعة السيارة وينشغل عنها فى الورش والآلات وهى تشجع جهوده ولا تنغص عليه حياته حتى صنع سيارته الأولى ثم أسس شركته .. ثم أصبح فيما بعد من أكبر أثرياء أمريكا وأهم قادة الصناعة فى العصر الحديث .

ومنهم المفكر الفرنسى مونتسكيو الذى لم تكن زوجته جميلة ولا ثرية لكنها كانت راجحة العقل فنجحت فى إسعاده وتوفير كل أسباب النجاح له. ومنهم أيضا طه حسين الذى سعد بزواجه وتأثر بزوجته الفرنسية كثيرا وحمل لها دائما أجمل مشاعر الحب والعرفان ، وأيضا توفيق الحكيم الذى لم يكتب عن حياته الخاصة مع زوجته الا اقل القليل لكن ما تسرب عن حياته وشى بحب زوجته العظيم له وتدليلها إياه وفهمها لطبيعته كفنان لا يحتمل القيود فسعد معها وسعدت به ..

لقد كتبت إليه حين أقام فى باريس لفترة مندوبا لمصر فى اليونسكو سنة ١٩٥٩ رسالة نشرها فى آخر كتبه « فى الوقت الضائع» تقول له فيها : أصبحت حياتى وأعصابى « متوقفة » على شىء واحد : خطابك .. فإن وصول خطاب منك فرحة كبيرة نلتف أنا والأولاد حوله ونقرأه بسرور بالغ وأسرح وأحاسب نفسى كيف ارتضيت أن أتركك تسافر .. وكيف تم هذا وأنا بهذا الشعور ثم أعود فأقول إنك لم تتركنا لتحقيق رغبة عندك وحدك بل هى رغبتنا واحساسنا جميعا نحوك ونحو آمالك .

وكان الحكيم قد أحس فى ذلك الحين أنه فى حاجة لأن يجدد نفسه وعقله فأبدى رغبة فى أن يقيم فى باريس لمدة عام يستعيد خلاله ذكريات الشباب ويتعرف على التيارات الفكرية الحديثة فتم اختياره مندوبا لمصر فى اليونسكو تحقيقا لهذه الرغبة .. وأدركت زوجته التى لم تكن فيما أتصور

من المثقفات المعروفات لكنها زوجة محبة وامرأة عظيمة عمق تلك الرغبة وأهميتها بالنسبة لفنان كالحكيم فلم تقف فى وجهها وإنما أيدتها وشجعتها وسافر الحكيم وبقيت هى فى بيتها تحترق بنار الحب والشوق ولا يخففها عنها إلا إدراكها أنه سعيد !

نعم هناك عظماء كثيرون وراء كل منهم امرأة لكن هناك أيضا عظماء آخرين لو لم تكن فى حياتهم امرأة من نوع زوجة لنكولن وسقراط وتولستوى لكانوا أكثر عظمة .. وأقل تعاسة .. وسبحان موزع الحظوظ !

شتاء الأحزان

كتبت لى ذات يوم سيدة فلسطينية تقول لى أنها تعيش فى أسبانيا وأن زوجها شاب مصرى من أبوين سودانيين جاءا إلى مصر منذ ٥٠ عاما ولم ينجبا سوى ابن واحد ، وعمل الأب بسلاح الحدود المصرى إلى أن بلغ سن المعاش ثم رحل عن الدنيا وبعده بشهور لحقت به زوجته ، ووجد الابن نفسه وحيدا تماما فى مصر بلا أهل ولا أقارب بعد أن انقطعت صلته بأسرة أبيه فى السودان منذ سنوات طويلة ، وكان قد تخرج من كلية التجارة فبدأ ملاحته وحيدا فى بحر الحياة وبعد أن تنقل بين عدة أعمال صغيرة سمع زملاءه الشباب يتحدثون عن السفر إلى أوروبا فباع كل ما يملكه وسافر إلى قبرص .. ولم ينجح فى العثور على عمل بها فغادرها إلى أسبانيا ، وفى أحد مقاهى مدريد التى يرتادها العرب تعرف إلى شخص فلسطينى يعمل لدى رجل أعمال عربى له أعمال تجارية واسعة وقصر فى أسبانيا ويتردد عليها من حين إلى آخر ، وللصدفة كان الأعمال رجل يبحث عن سكرتير يجيد الانجليزية والفرنسية ، فقدمه الفلسطينى له فأعجب بكفاءته وألحقه بالعمل معه ، وبعد فترة قصيرة جعل منه مديرا لأعماله المنتشرة فى بعض العواصم الأوروبية ، وتفتحت أبواب الرزق أمام الشاب المغترب وأصبح بعد فترة قصيرة ميسور الحال ويملك شقة جميلة فى مدريد فتلفت حوله يبحث عما ينقصه ، وبدأ يفكر فى الزواج ، وكانت صلته قد توثقت تماما

بصديقه الفلسطينى وأسرته فتقدم إليه طالبا يد ابنته الوحيدة ورحب الرجل بمصاهرته لكنه ترك القرار لابنته ، واقتنعت به الفتاة بعد فترة اختبار قصيرة ، وتزوجا وانجبا توءما ولدا وبنتا ، وسعدا بزواجهما ، وبعد فترة قصيرة رحل أبوها عن الدنيا ثم لحقت به أمها ، وأصبح الزوجان كما كتبت لى : « ليس لكل منهما فى الحياة على اتساعها سوى الآخر»..

وبعد عدة سنوات من العمل المتصل قرر زوجها أن يحصل على اجازة وأن يصطحب أسرته الصغيرة معه إلى مصر ليرى طفلاه لأول مرة أرض بلادهما التى يحملان جنسيتها ، وجاءوا إلى مصر وحرص الأب على أن يستأجر شقة مفروشة يستطيعون أن يروا من شرفتها الأهرام و « أبو الهول » وعاشت الأسرة الصغيرة أوقاتا سعيدة كثيرة ، لكن الزوجة المحبة لاحظت أن زوجها الطبيب مهموم بأمر ما فألحت عليه وكانا يجلسان ساعة الأصيل فى الشرفة أن يصارحها بما يضايقه فنظر إليها طويلا ثم قال : ألا ترين أننا بلا أهل ولا أصدقاء يسألون عنا ونسأل عنهم ؟ أنا بلا أخوة ولا أقارب ولاأصدقاء .. وأنت بلا أخوة ولا أقارب وأبنائى لا أهل لهم فى بلدهم التى يحملون جنسيتها ، وغلبته دمعة .. فجاوبتها دموع زوجته الغزيره ، ثم كتبت لى فى نهاية رسالتها تطالبنى بأن أتولى تعريفهما بعدد من الأسر المصرية لكى يتزاورا معها حين يجيئان إلى مصر ، ويراسلاها على البعد ويحسا بأن لهما فى مصر أصدقاء وأهلا ينتظرون مجيئهما ويهتمون بأمرهما .. ونشرت رسالة السيدة الفلسطينية فانهالت علىّ الاتصالات التليفونية والرسائل من أسر مصرية كريمة ترحب بصداقة هذه الأسرة وتعرض استضافتها خلال زيارتها لمصر .. ووصلت العروض إلى أقصى الجنوب فتلقيت عروضا من أسر فى الأقصر وأسوان تلح على هذه الأسره بزيارتها وقالت لى سيدة مصرية فى التليفون أنها بكت حين قرأت هذه الرسالة وأنها تعيش وحيدة بعد زواج ابنها وابنتها وانشغالهما بحياتهما وتريد أن تجعل من هذه السيدة العربية ابنتها الثالثة التى تهتم بأمرها

وتستضيفها عند زيارتها لمصر .. وقالت لى سيدة أخرى أن ابنها الوحيد قد هاجر مع زوجته وأطفاله إلى أمريكا وأنها تعيش على رسائله واتصالاته التليفونية وأنه يسعدها أن يكون لها ابن آخر فى أسبانيا تتصل به تليفونيا وتنتظر موعد عودته لمصر وتستضيف أسرته فى مسكنها ..

* * *

ومنذ فترة تلقيت رسالة أخرى من سيدة مصرية تعمل بأحد البنوك المصرية روت لى فيها أنها تزوجت مهندسا تعرفت به عقب تخرجها وأحبها وأحبته وبدأ معا حياتهما الزوجية سعيدين وتعمقت مشاعر الحب بينهما وازداد ارتباط كل منهما بالآخر بعد أن يئسا من الإنجاب ، فأصبح زوجها هو طفلها الوحيد وحبها الكبير ، لكن الزوج تقدم فى عمله وأصبح يشغل منصبا قياديا فى شركته وتم تكليفه بالإشراف على مجمع صناعى كبير على بعد ٣٠٠ كيلو متر من القاهرة ، وأصبح عمله يتطلب أن يغيب عن بيته أربعة أيام كل أسبوع ، تعيشها فى كآبة .. والوحدة والوحشة ينهشانها .. ولا تعرف ماذا تفعل بيومها إذ أنهامنذ عودتها من البنك فى الثالثة مساء تبقى وحيدة فى شقتها حتى صباح اليوم التالى فالاهل مقيمون فى الاسكندرية ، وزياراتهم لها متباعدة .. والصديقات على قلة عددهن كل منهن مشغولة ببيتها وزوجها وأبنائها .. وهى وحدها وحيدة لا يبدد التليفزيون وحشتها.. ولا تزيدها الأغانى الجميلة التى كانت تحب سماعها قديما إلا احساسا بالشجن .. ويخيفها هبوط الليل والظلام فتضىء كل أنوار المسكن وتنام نوما قلقا متقطعا إلى أن يأتى الصباح ، وفى نهاية رسالتها تطلب منى أن أعرفها بفتاة مغتربة عن أهلها بالقاهرة لتستضيفها فى شقتها وتؤنس وحدتها بترحيب من زوجها الذى اقترح عليها ذلك ، ثم بصديقات من الأسر الفاضلة تتبادل معهن الأحاديث التليفونية والسؤال عن الصحة والأحوال

لأنها تشعر أنها وحيدة .. وحيدة كالشجرة التى نبتت فى الصحراء خطأ وليس حولها من كل الجوانب سوى الرمال ..

وتلقيت عشرات الاتصالات التليفونية والرسائل من سيدات وأسر ترغب فى صداقتها ، وقدمت لها كل العروض ، ومضت فترة فإذا بى أتلقى منها رسالة جديدة تصف لى فيها حياتها بعد أن غمرها دفء الصداقة والمشاركة وتقول لى أن تليفونها الصامت لم يعد صامتا كما كان فقد أصبح يتلقى كل يوم الاتصالات من صديقاتها الجديدات ، وأن إحدى الصديقات اللاتى قدمتهن لها وهى طالبة مقيمة بمدينة قريبة للقاهرة وتجىء كل يوم إلى العاصمة لتدرس باحدى جامعاتها قد وافقت بعد أن تعرفت بأسرتها واستراحوا إليها على أن تمضى معها الليالى الأربع التى يغيب خلالها زوجها فتذهب صباحا إلى مكتبها وتعود إليها وأنها تحس الآن أنه قد أصبح لها ابنة طالبة جامعية ..

* * *

وتلقيت ذات يوم أيضا رسالة من وكيل وزارة سابق مست كلماتها قلبى وهو يقول لى : أعيش الآن وحيدا فى شقتى بالقاهرة بعد أن رحل عنى الأحباء إلى العالم الآخر منذ سنوات وغاب من كنت أجد عندهم الحنان والحب والاهتمام .. وأصبحت وحيدا أصحو من نومى فأعد لنفسى إفطارى واصلى واقرأ صحف الصباح التى يلقيها بائع الصحف من تحت الباب .. وتمضى الأيام الطويلة لا أسمع فى الشقة صوتا إلا صوتى أنا حين أؤدى صلاتى أو أرتل بعض آيات القرآن ، وصوت التليفزيون الذى لست من هواته وصوت مذيع الأخبار فى الراديو ولست أيضا من هواته ، وأنا راض والحمد لله بقدرى وقضائى لكن لى أمنية قد تبدو غريبة هى أن أقضى ما بقى لى من عمر فى مدينة الاسكندرية التى عملت بها لفترة طويلة من حياتى ، وكل ما أريده هو أن أجد إقامة مشتركة مع أسرة بالاسكندرية فى حدود امكاناتى

المالية ، لكى أعيش مع أناس طيبين أتبادل معهم تحية الصباح فى الصباح .. وأتمنى لهم نوما هادئا فى المساء ونتجاذب معا من حين لآخر أطراف الحديث عن الحياة والأسعار وزحام المرور .. الخ فلقد كدت انسى الكلام يا سيدى من قلة حديثى مع الآخرين » .. وقد وفقنى الله فى تحقيق أمنيته الصغيرة وانتقل للاقامة مع أسرة من أهل الاسكندرية، ولا أعرف ماذا صنعت به الأيام بعدها فقد توقف اتصالى به منذ ذلك الحين ..

* * *

وتعددت الأسباب والهم واحد .. فاختفاء الأهل والأصحاب والأصدقاء محنة قاسية تضاف إلى قائمة عذابات الإنسان الخاصة . لأن الإنسان كائن اجتماعى بطبعه يكره الوحدة ولو فى قصور النعيم.. ويشكو من الآخرين لكنه لا يستطيع أن يحيا بدونهم وقديما قال ارسطو : « إذا عشت منفردا إما أن تكون إلها .. وإما أن تكون حيوانا » .. فجاء بعده بقرون عديدة الفيلسوف الألمانى نيتشه وأكمل عبارته : « وإما أن تكونهما معا»!.. لكن الإنسان لا يستطيع إلا أن يكون إنساناً يحتاج إلى الآخرين ويحتاجون إليه.. ويهتم بأمرهم ويهتمون بأمره ، وبغير أن نهتم بأمر الآخرين لن نجد غالبا من يهتم بأمرنا ذلك أن الطريق الوحيد لكى نحصل على أصدقاء مخلصين يؤنسون وحشتنا هو أن نكون نحن أصدقاء مخلصين لهم ، والشخص الذى لا يهتم بالآخرين كما قال عالم النفس الشهير ادلر هو أحق الناس بمعاناة شدائد الحياة وفيه تتجلى الخيبة الانسانية بأجل معانيها ..

لكن المأساة هى أننا قد نهتم بالآخرين ولا نجد مع ذلك من يهتمون بنا لأسباب خارجة عن إرادتنا كغياب الأهل أو ابتعادهم عنا أو فقدانهم أو انشغالهم عنا بحياتهم الخاصة والإنسان فى حقيقة أمره يحتاج إلى من يحتاجون إليه .. ولعل هذا كما قلت ذات مرة يفسر لنا سر هذا الحزن الغامض الذى يحسه الأب وهو يرقب أبناءه وقد كبروا واستقلوا بحياتهم

الخاصة وقلَّ أو إنعدم احتياجهم النفسى والمادى إليه .. وبالرغم من أننا قد نتعزى قليلا عن افتقاد الأهل وأصدقاء الروح بمن نتعامل معهم فى أمور الحياة اليومية .. إلا أن حنين الإنسان إلى الصداقة الحقيقية والأهل الحميمين لا يعوضه أبدا هذا الزحام من البشر العاديين حوله ..

لهذا قال الشاعر الأحنف بن قيس :

أنى لأفتح عينى حين افتحها

على كثير ولكن لا أرى أحدا ..

أى .. لا يرى أحدا من أحبائه وأهله وأصدقائه الذين يستطيع أن يحتمى بدفء مشاعرهم من برد الشتاء .. شتاء الوحدة والأحزان .. فكل إنسان وحيد يعيش شتاء أحزانه ولو كان فى شرخ الشباب ..

أما أن تحرمنا ظروفنا ووحدتنا حتى من زحام البشر العاديين إلى حد أن نشتهى مجرد الكلام مع الآخرين كالنسور التى تموت فوق قمم الجبال الموحشة الباردة . فهذا هو الجحيم الذى يهون معه أى جحيم . ولو أدركنا ذلك وفهمناه حقَّ فهمه لما جحد إنسان أهلا ولا باعد صديقا ... ولا قطع رحما .. ولا أضاع عشرة عمر ، ولا تشاغل ولا أضاع يوما بغير أن يعمل على اكتساب صديق جديد .. قد يصبح ذات يوم درعه ضد الوحدة والاغتراب النفسى .. وأحزان الشتاء ..

لكن من يدرى .. ومن يفهم .. قبل فوات الأوان ؟

مسافر بلا متاع .. ولا كرامة

تذكرت هذه المسرحية الشهيرة التى تحمل اسم « مسافر بلا متاع » للكاتب والمفكر الفرنسى جان أنوى .. وتلك السيدة الجميلة الحزينة، تروى لى قصتها .. فلقد ظل هذا العنوان وصدى بعض العبارات من حوارها يتردد فى ذهنى وهى تبثنى همها.

أما هى فهى سيدة فى الثامنة والثلاثين من عمرها، رقيقة الملامح، من ذلك النوع من النساء اللاتى يشعرن إحساسا بالارتياح إليهن بمجرد الاقتراب منهن، وقد ألحت فى أن تقابلنى لكى أسمع قصتها. وجاءت فى موعدها وجلست دقائق تغالب خجلها قبل أن تبدأ الحديث فشجعتها بالأسئلة التقليدية عنها وعن عملها ووضعها الاجتماعى .. فقالت لى أنها نشأت فى أسرة متوسطة متدينة وأنهت دراستها الجامعية وعملت مدرسة بإحدى المدارس وكانت قبل تخرجها قد تعرفت بشقيق زميلة لها فأحبته وأحبها وتزوجا، واستقبلت حياتها الزوجية بحنين دافق للسعادة فتفانت فى حب زوجها حتى أصبح محور حياتها لا تطيق افتراقه عنها ولا يطمئن قلبها إلا إذا عاد إلى عشهما الصغير، وترافقه فى كل زياراته العائلية.. ولا تزور أسرتها إلا إذا اصطحبته معها .. تكتب له الرسائل الغرامية إذا اضطره العمل للسفر لعدة أيام إلى أى مكان، ويتندر أصدقاؤه برسائلها الملتهبة التى تطارده فى كل مرة يبتعد عنها لفترة قصيرة، وحين حان موعد ولادتها الأولى

رفضت أن تدخل غرفة الجراحة إلا ويدها تمسك بيده ووضعت مولودها الأول وهو إلى جوارها فأصرت على أن تسميه باسمه ولم يخفف المولود الجديد من اهتمامها بزوجها ، ولم يتغير شىء فى حياتهما ثم أنجبت طفلة أخرى وكان زوجها يعمل مهندسا معماريا ويحقق دخلا لا بأس به فلم تواجه حياتهما صعوبات مادية كبيرة وإن كانت مستعدة دائما للتضحية بمطالبها الخاصة لكيلا ترهقه .. تراه أجمل الرجال وأنجحهم .. وترى بيتها الصغير البسيط أجمل البيوت ، ولا تطمع فى أكثر من أن تواصل سفينة حياتهما المشتركة ابحارها الهادئ فى بحر الحب والحنان .. لكن زوجها المحبوب ليس راضيا تماما عن حياته ، وتراوده أحلام غامضة .. يريد أن يهاجر إلى أمريكا ليلحق بشقيق له هناك ويحاول أن يصنع قصة نجاح كبيرة فى المهجر .. وزوجته المحبة لا تعترض أحلامه ، لكنها ترى أن نسيج حياتها قد تشابك مع نسيج حياته.. لهذا فلا مجال للتفكير الانفرادى فى أى مشروع يتعلق بالمستقبل.

فإذا كان يريد أن يسافر ، فليسافر .. ولكن معها . وهو كما يقول لها يشفق عليها من صعوبات البداية ويريد أن يكون وحيدا خفيفا فى بداية الرحلة إلى أن تستقر حياته فيستدعيها ويجتمع شملهما مرة أخرى .. وهى تبكى بكاء حارا وتستحلفه ألا يدعها وحدها ، وأخيرا تقبل باكية أن يسافر ويرحل زوجها وحيدا .. وتعيش أيامها مكتئبة حزينة تترقب بصبر نافد رسائله.. ورسائله تصف لها مصاعب الحياة وتطالبها بالصبر ، وهى تلاحقه بالخطابات والاتصالات التليفونية ، وتنتظر دعوته لها فلا تجيئها الدعوة .. وتنتظر عودته فلا يعود وبعد عامين طويلين يعود إليها بغير أن يحقق نجاحا يذكر . ويعود لوظيفته الأولى لكن شيئا فى أعماقه قد تغير .. فقد أصبح السفر إلى المجهول هو حلمه الكبير وكما فاجأها في المرة الأولي بقرار السفر إلى أمريكا فاجأها في المرة الثانية بقراره أن يسافر إلى إيطاليا

ليبحث عن مستقبله هناك .. وطالت الغيبة هذه المرة عاما كاملا .. ثم عاد كما سافر غريبا يعتبر اقامته مع أسرته اقامة مؤقتة أو استراحة قصيرة بين رحلتين .. وسافر بعد قليل إلى دولة عربية لمدة عامين ثم عاد وأقام معها عدة شهور أحست خلالها أنها قد فقدته إلى الأبد ، فهو غائب عنها رغم وجوده بجانبها .. وهو يلاحق أصدقاءه المقيمين في الخارج بخطاباته بحثا عن فرصة عمل في الخارج .. وهو دائما على موعد مع صديق عائد من السفر أو رجل أعمال أجنبي سيبحث معه مشروعا للعمل في الخارج .. وقد نسي الهندسة وأصبح يتكلم لغة رجال الأعمال ثم استقرت سفينته الحائرة في بلد آخر مجاور يمارس فيه عملا لا علاقة له بالعمارة ولا بالهندسة .. فقد أصبح من رجال الفندقة والسياحة وحقق لأول مرة نجاحا حقيقيا في هذا المجال فعيِّن مديرا لفندق صغير وأصبح له جناح بالفندق يستطيع أن يجمع فيه شمل أسرته لكنه لم يرحب بذلك وكان مبرره في ذلك هو استقرار الطفلين في الدراسة .

وكفت زوجته عن الشكوى واستسلمت للمقادير وأصبحت الأم والأب لطفليها وأصبح زوجها يعود إليها كل خمسة أو ستة شهور ليمضي معها عدة أيام خطفا يطمئن خلالها على طفليه ويستعيد مع زوجته ذكريات الأيام الجميلة ثم يجري إلى المطار كالمطارد ليستأنف إبحاره في بحر الغربة الذي لا شاطئ له .

ومضت الأيام على هذا الحال ثماني سنوات كاملة .. لا ترى زوجها في كل سنة أكثر من أيام معدودة كل بضعة شهور ، ورغم ذلك لم تخمد جذوة الحب فى قلبها ولم تيأس من استعادة طائرها الشارد إلى عشه المهجور ، وفى كل مرة يعود لها تناشده أن يستقر معها فى بلده بعد أن حقق لنفسه بعض ما كان يحلم به من نجاح مادي أو يصطحبها معه .. لكنه يطالبها بالمزيد من الصبر .. ويخيل إليها أنه لم يعد يسعى وراء نجاحه بقدر ما

اعتاد التحليق في الهواء الطلق وأصبح من الصعب اعادته مرة أخرى إلى العش الهادئ وفى لحظة مراجعة لحياتها معه اكتشفت أنه قد مضى على زواجها منه ١٤ عاما لم تهنأ خلالها بالاستقرار معه أكثر من عامين وبضعة شهور!

ثم تعرضت حياتها الخاصة لمحنة شخصية قاسية، فقد تقدم الطفلان فى الدراسة وعجزت عن مساعدتهما فى بعض المواد الدراسية فاستعانت بمدرس زميل لها بالمدرسة ليساعد طفليها، وأصبح المدرس يتردد على بيتها نهارا مرتين كل أسبوع ليعطى طفليها درسا، ومراعاة لظروفها كزوجة وحيدة حرصت على أن ينتهى الدرس قبل الغروب وأن يغادر زميلها المسكن فى ضوء النهار، ثم جاء الشتاء وأصبح الظلام يحل مبكرا وذات يوم أمطرت السماء مطرا غزيرا في مدينتها الساحلية التي يكثر فيها المطر شتاء فطلب المدرس عند انصرافه أن يستعير منها مظلة تقيه المطر عند خروجه ثم غادر المسكن.

وتوقفت زائرتى عن الحديث عند هذه النقطة ثم قدمت لى رسالة مكتوبة ودعتنى لأن اقرأها لأعرف بقية القصة لانها كما قالت تخجل من أن ترويها لى .. فأخذت الرسالة ومررت بعينى سريعا على سطورها حتى توقفت أمام هذه الكلمات: « وانتهى يوم العمل بالنسبة لى .. فأدخلت الطفلين سريريهما.. وبقيت إلى جوارهما إلى أن ناما .. ثم خلعت ملابس الخروج .. وارتديت قميص النوم وصففت شعرى وعقدته ثم رششت بعض رذاذ العطر على وجهى ورقبتى كما اعتدت أن أفعل قبل النوم منذ بداية زواجي .. ولم أستطع أن أغير هذه العادة خلال السنوات الماضية .. وتأملت وجهى طويلا فى المرآة ونظرت بحسرة إلى صورة زوجى الموضوعة إلى جوارها ثم دخلت فراشى وأطفأت النور ورحت فى النوم .. وفجأة تنبهت من نومى على صوت جرس الشقة فاستيقظت منزعجة وفتحت الباب بغير وعى فإذا بى

أجد أمامى زميلى المدرس يقف أمام الباب متذرعا بحجة إعادة المظلة إلىّ .. ولن أطيل فى ذكر تفاصيل ما حدث لكنى سأقول فقط أننى تعرضت لمحنة شديدة تمزقت فيها ملابسى وقبّلت خلالها قدم « وغد » وأنا أتوسل إليه أن يرحم ضعفى وأن يدعنى لحالى ، وكان كل ما يشغلنى هو ألا يشعر أولادى أو جيرانى بشىء حرصا على سمعتى وعلى نفسية أبنائى .. وسترنى الله فاستجاب الوغد لمطلبى وانصرف بعد بهدلة وعذاب ولم يشعر أبنائى بشىء والحمد لله . لكنى تعرضت بعدها لأزمة نفسية شديدة، ورغم مضى وقت طويل على هذا الحادث فان بصماته لم تزل غائرة فى نفسى . ولم أخبر أحدا بما حدث حتى لا أسىء لنفسى اكثر ثم قرأت فى بريدك رسالة تناقش مشكلة مشابهة فنكأت هذا الجرح القديم فى نفسى ووجدتنى أروى لك قصتى كدرس لكل من يترك وراءه زوجة صغيرة شابة وحيدة لمصير مجهول لفترات طويلة بلا مبرر وبلا ضرورة ولكى أقول لهؤلاء أننى سيدة متدينة لكن الكمال لله وحده والنفس دائما ظمأى للكلمة الطيبة .. والسلام».

واستمعت إلى القصة صامتا ثم قلت لها بهدوء : إننى أقدر آلامك وعذابك وتضحياتك .. لكنك إخطأت بحسن نية ، فلقد كان من الأفضل فى مثل ظروفك أن يعتمد أبناؤك على أنفسهم وأن يستعينوا بمجموعات التقوية فى المدارس أو أن يتلقوا الدروس وسط مجموعة صغيرة من الطلبة فى بيتك أو فى بيت أحد زملاء ولديك ، كما أنك أخطأت أيضا عندما فتحت الباب فى منتصف الليل وفى ظروفك لم يكن من المقبول أن تفتحى بابك لأحد لأى سبب فى مثل هذا الوقت المتأخر .. لكن أخطاءك أو هنّاتك لا تقاس بجريمة زوجك فى حقك أو حق أبنائك بترككم وحدكم عدة سنوات طويلة ، بلا مبرر سوى جريه وراء طموحه فأمثاله كثيرون يصطحبون أسرهم معهم أو يهاجرون لفترات محدودة لحل مشكلتهم المالية ثم يعودون لرعاية أسرهم .

أننا لا نلوم مهاجرا تضطره الظروف لترك أسرته وراءه لفترة لكننا نلوم

من يفضل تركها وراءه بلا مبرر ليتخفف من أعبائها النفسية أو المادية .. ونلوم من حقق نجاحا وثروة ويرفض العودة لأسرته بعد أن أصيب بالسعار وأصبحت الحياة عنده أرقاما وحسابات بنوك ناسيا أن رعاية الأبناء والزوجة هي مسئوليته الأولى فى الحياة وهى الهدف الذى كان ينبغى أن تيسره له الثروة . إذ ماذا يجدى المال وحده وحياة الإنسان ممزقة وأبناؤه ضائعون . لقد استن الخليفة العادل عمر بن الخطاب قاعدة حكيمة هى ألا يغيب الرجل فى الجهاد عن زوجته وأبنائه أكثر من أربعة شهور يعود بعدها لأسرته وطبّق هذه القاعدة على المجاهدين فى سبيل الله ، فكيف يكون الحال بالمجاهدين في سبيل المرسيدس والفولفو ؟! ألا تطالبهم النخوة باصطحاب أسرهم معهم أو بالعودة لها بعد الارتواء؟

قلت لها كل ذلك .. وطالبتها بأن تكون أكثر حسما مع زوجها ، فإما أن يعود ويجمع شمل أسرته معها فى مدينتها .. وإما أن يصطحبها معه ويجتمع شملهم فى مهجره .. وإما ثم سكت عن الكلام لبرهة فاستحثتنى أن أواصل فقلت لها بعد فترة صمت .. وأما أن تطبقى رأى فقهاء المالكية الذى يوجب التفريق بين الزوجين إذا امتنع الزوج عن اعفاف زوجته لغير ما ضرورة قاهرة .. وإذا لم يرجع عن ذلك !

فترقرقت الدموع فى عينيها ونهضت خافضة الرأس وهى تقول بصوت هامس : نعم سأفعل هذا .. فالكمال لله وحده كما قلت من قبل ولست مستعدة لأن أقبّل أقدام الأوغاد مرة أخرى حماية لنفسى!

وغادرتنى .. وفى أذنى ترن عبارة غريبة من حوار رواية المسافر بلا متاع تقول :

– لا خير فى الأسرة إذا كانت الروابط بين أعضائها فاسدة .. أو منعدمة!

ظـــلٌ.. على الحـــائط

هل تنبئ العيون أحيانا بأن هذا الذى نراه لأول مرة سيكون له شأن فى حياتنا؟

لقد رآها لأول مرة وهو يطل من شرفة بيته بالمدينة الصغيرة ذات أصيل وهى تهبط من عربة نقل صغيرة مع شقيقيها الأكبر والأصغر ورجل يساعدهم فى إنزال أثاثهم إلى الشقة الصغيرة بالدور الأرضى فى البيت الملاصق لبيته .. فرفعت عينيها بتلقائية والتقت عيونهما للحظات فأحس إحساسا غريبا بأن تلك الوافدة الجديدة إلى شارعه ستكون فتاته وسيكون لها فى حياته شأن كبير!

كان فى سن الأحلام يدق أبواب السابعة عشرة من عمره .. ويستعد لبدء عام الثانوية العامة وكانت هى تصغره قليلا وتبدأ أولى خطواتها بالمدرسة الثانوية . ومن المظاهر التى صاحبت وصولها إلى شارعه خمن أنها من أهالى القرى المجاورة لمدينته الصغيرة الذين يتعلم أبناؤها فى مدارس مدينته ويجيئون إليها قبيل بداية العام الدراسى ، ويستأجرون مساكن صغيرة لهم بجوار مدارسهم .

ودقق النظر فى وجه شقيقها الأكبر الذى يعمل بهمة فى نقل الأثاث فتعرف فيه على زميل له بنفس السنة الدراسية بمدرسته . ومنذ لحظة وصولها إلى شارعه استقر به المقام فى شرفته المجاورة لها . أسِف كثيرا لأن

مسكنها لم يكن مواجها لبيته ليستطيع رؤيتها بلا عناء وتركزت حواسه فى محاولة التقاط أى صوت صادر من نافذة شقتها المطلة على الشارع الضيق. وحل المساء وأضيئت أنوار المساكن فلاحظ بارتياح أن الضوء ينبعث من نافذة شقتها فيرسم على أرض الشارع المظلم مربعا مضيئا تنعكس عليه ظلال من يقفون فى النافذة، وراقب بصبر ظلها وهى تتحرك بالقرب من النافذة .. ثم وهى تستقر .. واستطاع بسهولة أن يميز حركتها وهى تمضغ اللبان وتسوى شعرها وتمسح وجهها بيدها ونظر فى مواجهته فرأى الضوء المنبعث من باب شرفته يرسم مستطيلا منيرا على حائط البيت المواجه لبيته ورأى ظله ينعكس عليه بوضوح .. فتساءل وقلبه يخفق بالأمل .. هل يمكن أن ينقل ظله المرسوم على الحائط نداءه العاطفى إلى قلبها ؟

وواظب خلال الأيام التالية على الوقوف فى شرفته مع هبوط المساء يرقب باهتمام ظلها على الأرض إلى أن يتأخر الليل وينطفئ الضوء فى مسكنها وراوده احساس غريب بأنها تحس به وتترقب ظله كما يترقب هو ظلها وأكد لنفسه أن إشعاع الحب ينفذ عبر الصخور فكيف يعجز عن الوصول إليها ؟

وبدأ العام الدراسى .. فراقبها وهى تغادر مسكنها فى الصباح فى زيها الأزرق الجميل .. وراقبها فى عودتها .. وحاول أن يلفت نظرها إليه بالنظرات الحارة .. فلم يتلق أية اشارة تطمئن قلبه الملهوف . وتعمد أن يسير ذهابا وإيابا أمام نافذة مسكنها أكثر من مرة .

ثم وقف فى شرفته ذات يوم فرآها قادمة تحتضن حقيبتها المدرسية فتعلقت حياته كلها بنظرة منها تشعره بأنها « تعرف » وتبادله نفس المشاعر ، فإذا بها ترفع عينيها خلسة وتنظر إليه نظرة هادئة طويلة قبل أن تعبر شرفته وتدخل بيتها واستراح من عذابه الطويل وانتظر المساء بصبر نافذ حتى ظهر ظلها فتجرأ على أن يبعث إليها بأولى رسائله الصريحة ..

فمسح بيده على شعر رأسه وترقب رد فعلها فرآها تمسح بيدها على شعرها!

وفى الصباح التالى ترقب موعد خروجها للمدرسة واقترب منها ثم مد لها يده بورقة صغيرة وانتظرها فى الموعد الذى حدده لها فى رسالته فجاءت بحذر وتم اللقاء الأول على سلم عمارتها قبل موعد ذهابها للمدرسة بساعة.. وتوالت لقاءاته الخاطفة معها . لا تدوم أكثر من دقائق ولا يتجاوز حديثهما فيها كلمات الحب والأمل فى المستقبل الجميل أما لقاؤهما الأساسى فهو لقاء الظل الذى يبدأ بعد الغروب ويستمر حتى العاشرة أو الحادية عشرة كل ليلة.

وانتهى العام الدراسى وحبهما هو الحقيقة الأولى فى حياتهما ثم عادت لقريتها وانقطع لقاء الظل .. وتواصلت الرسائل بينهما تحملها مرة كل أسبوعين جارة عطوف راقبت حبهما بعطف منذ البداية ومن حين لآخر تجود الحياة بنسمة سعادة غالية حين تسمح ظروف الرقابة العائلية لها بالرد على استغاثاته التليفونية المتكررة .. وحصل على شهادته واستعد للسفر إلى القاهرة ليبدأ تعليمه الجامعى .. واستعدت هى لاستكمال دراستها فى الاسكندرية حيث سيدرس شقيقها الأكبر دراسته الجامعية .

وقضى فى القاهرة عامه الجامعى الأول موزع القلب بين فتاته فى الاسكندرية .. وأسرته فى المدينة الصغيرة .. وأصبح من طقوس حياته أن يغادر القاهرة كل شهر ليزور أسرته ثم يتوجه إلى الاسكندرية ليلتقى بفتاته ووفرت لهما الحياة فى المدينة البعيدة عن رقابة الأهل فرصا ثمينة للقاء فى المحال العامة وحبهما يترسب فى الأعماق ويتسرب فى الخلايا وفى الصيف عادا إلى أسرتيهما وتواصلت الرسائل والاتصالات التليفونية بينهما. وفجأة تبدد الحلم الجميل بلا مقدمات فلم تعد تجيب استغاثاته التليفونية.. وعادت الجارة الطيبة من رحلتها إليه بالخيبة والألم . لقد خطبت وتستعد

للزواج وقالت لهاساهمة : ماذا كنت أستطيع أن أفعل وأهلى الحوا على بالقبول .. والعريس قاض شاب وموعود بالمستقبل العريض وليس عندى ما أقنع به أهلى بانتظار طالب أمامه عدة سنوات قبل أن يتقدم لى فخففى عنه واطلبى إليه أن يكون واقعيا .. وأن يعذرنى !

وبكى الشاب المصدوم وهو يستمع إلى نعى حبه وأمله ، ولأسابيع طويلة بعدها لم يعرف النوم المريح ولم يهنأ براحة وكلما اشتد عليه الألم قال لنفسه غاضبا : باسم الواقعية يقتلون الحب ويبررون الغدر !

ثم داوت الحياة جراحه شيئا فشيئا .. وتخرج من كليته وعمل بالنيابة أيضا وراوده الاحساس الخفى بأنه قد يلتقى ذات يوم فى مجال عمله بمن فاز بملكة حبه القديم ، وتساءل كيف يكون الحال إذا عمل ذات يوم تحت رئاسته أو جمعتهما مرة منصة القضاء ؟

وبعد سنوات الكفاح استقرت سفينته وهو فى سن النضج بادارة التفتيش القضائى بوزارة العدل ودخل عليه الساعى ذات صباح يستأذنه فى دخول أرملة مستشار توفى منذ حوالى عام تطلب مقابلته فأذن لها ودخلت فى فستان أسود محتشم فنهض باحترام يحييها وهو منكس الرأس ثم جلس إلى مكتبه منتظرا أن تفصح عن طلبها فلم تتكلم .. فرفع إليها رأسه ليشجعها على الكلام فوجدها تنظر إليه بثبات نظرة هادئة فعاد ينظر إلى ورقه متجنبا نظراتها ثم اشتعل باطنه فجأة بخاطر غريب فنظر إليها وقال مندهشا : أنت ؟ فأجابته باسمه: نعم أنا. فقال مأخوذا كأنما يحدث نفسه : أنت أرملة المرحوم المستشار عجيب بك يا إلهى .. لقد التقيت به مرات فى الوزارة وفى نادى القضاء .. وجمعتنا لفترة قصيرة عضوية إحدى اللجان وسرت فى جنازته وأنا لا أعرف أنك قريبة منى بشكل أو بآخر . كيف حالك ؟

واستسلما للحديث لفترة طويلة فحكت له عن حياتها وعرف منها أنها

عاشت مع زوجها حياة هادئة ليست مشتعلة بالحب المتقد لكنها مرطبة بالتفاهم والمودة وأنجبت فتاة واحدة تزوجت فى سن العشرين ثم لحقت بزوجها فى أمريكا . حيث يدرس للحصول على الدكتوراه وسألته عن أحواله فاجابها :

تزوجت وأنجبت بنتين الأولى عمرها الآن ١٤ سنة والأخرى عمرها ١٢ سنة ثم سكت قبل أن يقول ! وهما الآن فى حضانة أمهما منذ ٤ سنوات وخفض عينيه فجاء صوتها مستدعيا معه ذكريات الماضى بأنها لم تفاجأ بذلك وإنما علمت به فى حينه من زوجها الراحل الذى عبر لها عن أسفه لعدم توفيق رجل مثله فى زواجه بالرغم من وداعته وطيبته وقال لها إن زملاءه ارجعوا فشله إلى سوء طباع زوجته السابقة ونوهوا بتعففه عن منازعتها فى شىء .

وغرق فى أفكاره وأشجانه .. فتنبه إلى أنه لم يسألها بعد عن حاجتها فقال لها آسف : جرفتنا الذكريات .. فلم أسألك عما أستطيع أن أفعله لك هل تواجهين أية مشاكل فى اجراءات المعاش أو غيرها فقالت له بهدوء : لم آت إليك طلبا لخدمة .. لكنى كنت فى الوزارة لانهاء بعض الأوراق .. فوجدت نفسى أطلب مقابلتك وساد التفاهم الصامت المكان مذكرا بلغة الظلال السرية .. وقال لها بود صادق : أهلا بك .. وهم بأن يسألها عما تشرب ففوجئ بصوتها الرزين يعود ليواصل الحديث بنبرة اعترافية جميلة : والحق أيضا أنها ليست المرة الأولى التى أفكر فيها فى الحضور لمقابلتك وإنما فكرت فى ذلك أكثر من مرة بعد شهور من وفاة زوجى .. فقد تابعت خطواتك فى حياتك العملية والشخصية فيما كان يرويه لى زوجى عن زملائه.. وسألته باهتمام خفى عن أحوالك فيما أسأله عنه من أخبار الزملاء وسعدت بمعرفته لك واشادته بأخلاقك وأحسست بأنك قد عدت

للظهور فى حياتى مرة أخرى وأصبحت قريبا منى بشكل غير مباشر فاطمأننت لهذا الاحساس واسترحت إليه على البعد .. فسألها باسما : بشكل غير مباشر كما كنت وأنا ظل على الحائط !

وحنت رأسها موافقة وباسمة فأحس بخدر لذيذ يتسلل ببطء إلى مشاعره وبنشوة طاغية تسرى فى روحه فاستسلم بلا مقاومة .. بلامقاومة!

للظهور فى حياتى مرة أخرى وأصبحت قريبا منى بشكل غير مباشر فاطمأننت لهذا الاحساس واسترحت إليه على البعد .. فسألها باسما : بشكل غير مباشر كما كنت وأنا ظل على الحائط !

وحنت رأسها موافقة وباسمة فأحس بخدر لذيذ يتسلل ببطء إلى مشاعره وبنشوة طاغية تسرى فى روحه فاستسلم بلا مقاومة .. بلامقاومة!

هذا الكتاب

جفت الكلمات فلم يجدا ما يضيفانه ثم تحركا للانصراف .. وعبرا الشارع القديم .. إلى مكان سيارتها وفتحت بابها ودخلت ومدت يدها تصافحه مودعة فاحتفظ بها وقال لها كأنما يحدث نفسه : قرأت بالأمس عبارة غريبة لأوسكار وايلد تقول : « كل ما يتمناه المرء يستطيع أن يحققه.. ولكن غالبا بعد فوات الأوان » ! .. فلماذا تتحقق الأمنيات الغالية بعد فوات الأوان ؟ فأدارت محرك السيارة صامته وتحركت بها ببطء وهو يتابعها بنظره إلى أن اختفت شيئاً فشيئا وسط الزحام ..

فركز عينيه طويلا على عين السلحفاة .. واقترب منها أكثر ليستجلى صورة عماد داخلها ويتحقق من ملامحه .. فإذا بغمامة تعترض نظره وتؤثر على وضوح الصورة .. فضاق بها وحاول أن يزيحها بيده فلم يجدها.. وإنما ترطبت يده بسائل حار اكتشف حين أفاق من ذهوله أنه دموع ساخنة توقفت قليلا فى عينيه فحجبت عنه الرؤية بعض الوقت ثم سالت فعادت صورة عماد للظهور مرة أخرى جميلة .. وادعة .. ضاحكة.. واعدة بعودة الحب والسعادة من جديد .. فهتف لنفسه صامتا: رحمتك بالمهمومين ياالهى ..

« انها صورة صادقة من الحياة تترك فى نفس قارئها أثرا غريبا هو مزيج من المتعة والحزن .. تماما كما تختلط الفكاهة بالأسى أحيانا فى حياة الناس!» .

وما أكثر ما تختلط المتعة والحزن فى حياة البشر فلا المتعة تطول ولا الحزن يخلد .. لأنها طبيعة الحياة أن تكون كأسا متمازجة من الاثنين غالبا.. أو دائما أو فى كل الأحوال !.